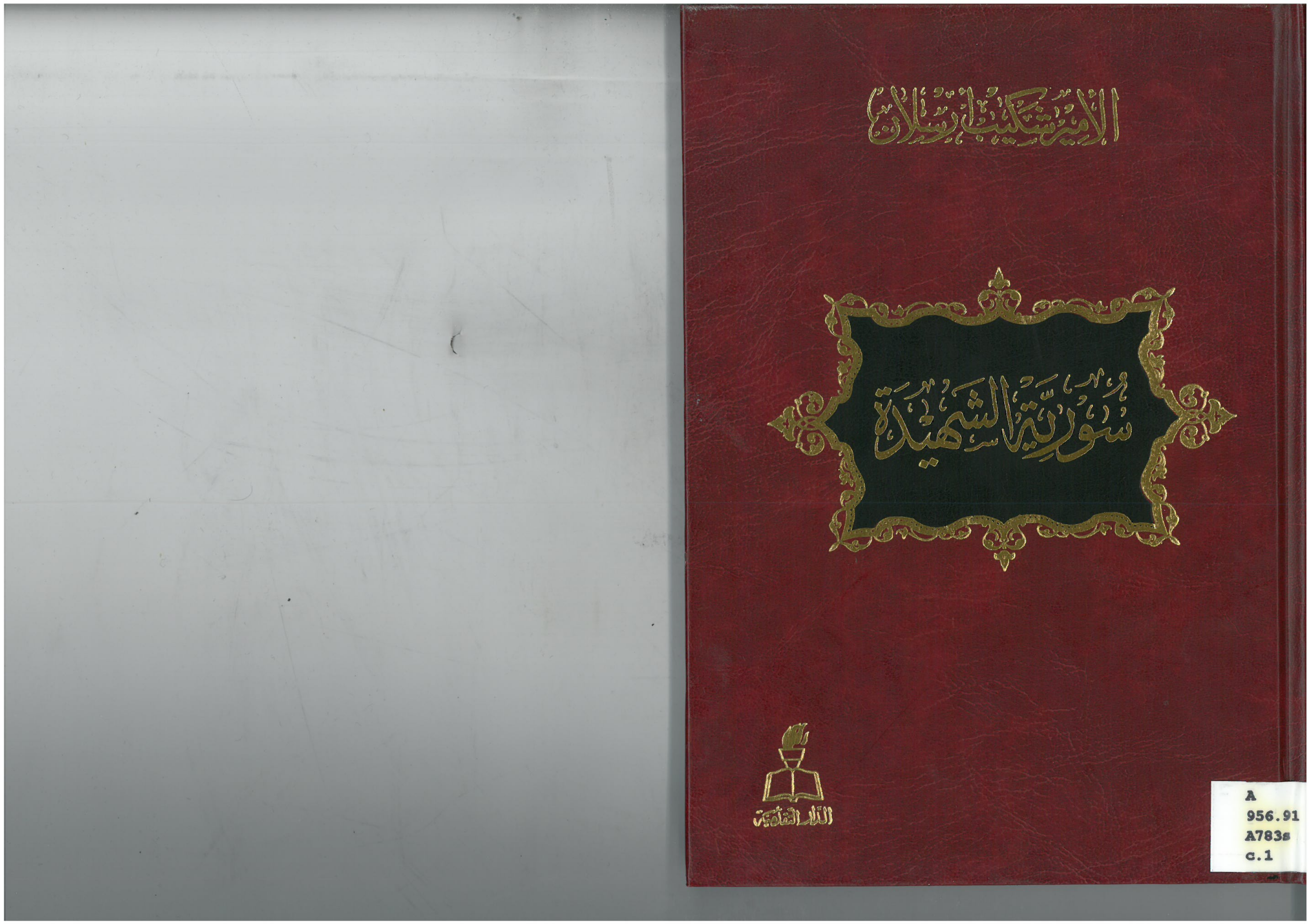

الأمير شكيب أرسلان
سورية الشهيدة
الدار التقدمية

الأمير شكيب أرسلان / سورية الشهيدة

قدّم له:

د. جميل زغيب نيتو

إشراف وتحرير:

د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية

المختارة ـ الشوف ـ لبنان

هاتف: ٥/٣١٠٠٥٥ ـ ٩٦١ ـ ٥/٣١١٥٥٥ ـ ٩٦١

E-mail:moukhtarainf@terra.net.lb
http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الأمير شكيب أرسلان

سورية الشهيدة

سلسلة فظائع ارتكبتها مدنيّة القرن العشرين

في ديار الشام

تقرير

تلقّته اللجنة التنفيذية

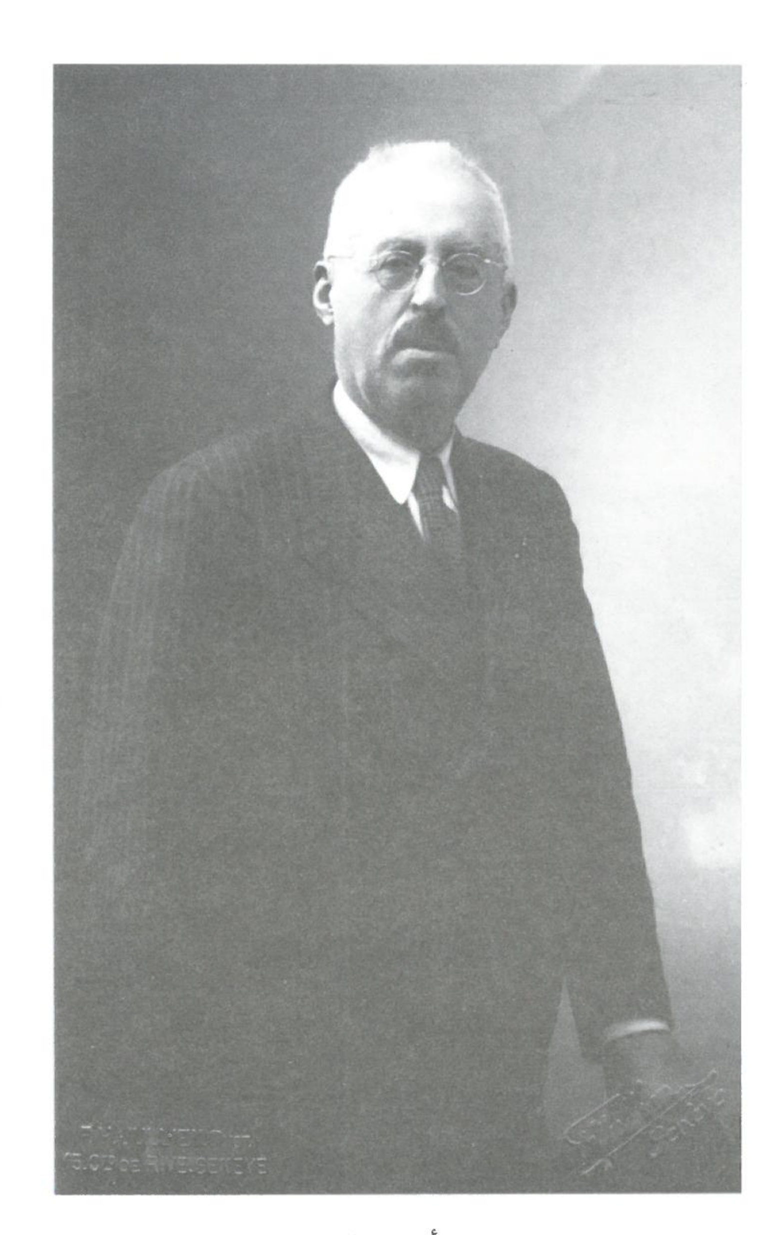
للمؤتمر السوري الفلسطيني بمصر

وقرّرت نشره ليطّلع العالم كلّه على ما يجري باسم التحضير والتمدين

من الفجائع والفظائع في البلاد السورية المعذّبة

(١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م)

الدار التقدّمية



أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

مقدّمة الناشر

إذا كان الأمير شكيب أرسلان قد كرّس حياته في سبيل القضايا العربية والإسلامية، حتّى قال بالفم الملآن: «لو لم يبقَ في الدنيا كلّها إلاّ رجلٌ واحد يقوم بواجب الدفاع عن الدين والوطن، ويصدع بالحقّ، لكنتُ أنا ذلك الرجل»، فإنّه لم يتوانَ عن الاستبسال في سبيل رفع الظلم والقهر والاستبداد عن شعبه وأمّته، خصوصًا وأنَّ الحرّية والاستقلال كانا شعاره الذي حمله، والوفد المرافق له، إلى أقاصي الدنيا، متسلّحًا بالكلمة في مواجهة السلاح، ومدجّجًا بقوّة الشكيمة، والرأي القويم أمام مذابح الدم والنار التي حلّت في سوريا، خلال الانتداب الفرنسي لها؛ هذه المذابح التي أشعلت نار الثورة المباركة التي قادها الأمير سلطان باشا الأطرش عام ١٩٢٥، والتي استطاعت، على الرغم من الإمكانات المتواضعة، من أن تهزّ عرش الترسانة الفرنسية المتطوّرة.

ولم يكن الأمير شكيب أرسلان في هذه العجالة محدّثًا لبقًا فقط، ولكنّه صوّر ورفاقه، أعضاء الوفد الذي مَثَلَ في كلِّ المحافل الدولية، صور المجازر وأساليب القمع وألوان التعذيب التي طالت أهل الشام! وهو، أي الأمير الذي كان يهتزّ غضبًا لكلّ ظلم يقع في أقاصي الأرض وأصقاعها، فكيف بالله يكون حاله، وأهله وقومه تحت وطأة الألم والمعاناة والقهر؟! هذا، ولا يفوتنا أن نذكر أنَّ أمير السيف والقلم، الأمير عادل أرسلان، الشقيق الأصغر للأمير شكيب أرسلان، كان في طليعة الثوّار الذين استبسلوا في سبيل الحرّية والكرامة، واسترداد الأرض من رِبْقَة الاحتلال.

كتاب «سورية الشهيدة» هو عبارة عن تقرير رفعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بمصر، وقد قرّر الأمير شكيب أرسلان نشره لكي يطّلع العالم

العربي أجمع على ما يجري في سوريا بأسم التحضّر والتمدّن.

الكتاب مطبوع، يقع في ٣٦ صفحة، وهو من محفوظات مكتبة الأستاذ شوقي حمادة، عضو المجمع العلمي، (من مشايخ آل حمادة الكرام في بعقلين) الخاصّة، وقد ذُيِّل بملاحظة خطّتها جدّة الأستاذ شوقي، والتي تقول فيها بأنّ الكتاب هو للأمير، وقد وضعه عهدة بين أيديهم، نظرًا لعلاقة الصداقة المتينة التي كانت تجمع بين آل البيت المذكور في بعقلين بأمير البيان.

وعليه، فإنّنا في الدار التقدّمية تلقّفنا هذا الأثر الهامّ شاكرين للقيّمين عليه حسن الأمانة، وعظيم الثقة، وآثرنا نشره، لنضيفه بكلّ اعتزاز إلى مجموعة مؤلّفات الأمير شكيب أرسلان، آملين أن يحمل إلى قارئ اليوم صورة رجال رجال مرّوا بالأمس القريب، وحفروا أسماءهم في سجلّات التاريخ بحروف من ذهب، مردّدين قول الشاعر:

سيّان عند ابتناء المجدِ من وطنٍ ... من يحمل السيفَ أو من يحمل القلما

الدار التقدّمية

في، ١٧ آب ٢٠٠٩

الأمير شكيب أرسلان

اللبناني، العربي، الإسلامي *

بقلم: د. جميل زغيب نيتو*

إنّ افتخاري بانتمائي إلى البرازيل، مسقط رأسي، لا يضاهيه سوى افتخاري بالانتماء إلى وطني المرجعي لبنان، موطن الأجداد والمحبّة، الذي قمتُ مؤخّرًا بزيارته، مرّات عدّة، لإنجاز دراستي حول تركيبته الطائفية (التي شكّلت موضوع أطروحتي الجامعية في باريس لنيل الدكتوراه). هناك، أتيحت لي فرصة نسج علاقات وثيقة مع الكثيرين من أبناء طائفة الموحّدين الدروز، والتعرُّف عن كثب على العلامات الفارقة المميّزة لهم، وكذلك على بعض الشخصيّات الدرزية البارزة ـ كالأميرشكيب أرسلان ـ والتي لعبت دورًا جوهريًا في النضال من أجل القومية العربية. لذا، يشرّفني الإسهام في كتابة مقدّمة أحد كتبه، تكريمًا لهذا الرجل الذي قضى معظم حياته في الدفاع عن القضيّة التي طالما آمَنَ بها.

تجدر الإشارة أولاً إلى أنّ الأمير الدرزي شكيب أرسلان، المُكنّى بـ «أمير البيان»، نظرًا لبلاغته في اللغة العربية (بالإضافة إلى الفرنسية والإنجليزية)، كان عدّة رجال في رجل واحد. وقد لَفَتَ نضاله التحرّري انتباه المثقّفين في المغرب، كما في فلسطين وفي أماكن أخرى من العالم العربي، حيث أفادوا من مجلّته «لا ناسيون آراب» (الوطن العربي) كمنبر للدفاع عن آمال الشعوب العربية.

كان أرسلان شاعرًا، ومؤرِّخًا، وسياسيًّا، وكاتبًا، في آنٍ معًا. وتجلّت دعوته العروبية والإسلامية واضحة في دوريّته «لا ناسيون آراب» التي استمرّ في إصدارها طيلة ١٨ سنة في جنيف، بالتعاون مع مواطنه السوري إحسان الجابري.

* مقدّمة باللغة الفرنسية، قام بتعريبها الأستاذ وجيه البعيني.

* دكتور في علم النفس الإجتماعي، أستاذ محاضر في جامعة بارابا الفيدرالية ـ البرازيل.

وبعد أن تقلّد مناصب عديدة في مسقط رأسه لبنان، وجد شكيب نفسه منفيًّا في جنيف، إثر اجتياح الفرنسيين والإنجليز للمشرق. هناك، ثابر قلمه على صياغة المقالات التي نُشرَت في صحف عديدة، متطرِّقًا فيها إلى القضيّة الأكثر التصاقًا به، ألا وهي وحدة الشعوب العربية. وفي الوقت نفسه عُيِّنَ رئيسًا للأكاديميّة العربية في دمشق، وممثِّلاً رسميًّا لسوريا وفلسطين لدى عصبة الأمم، ورئيس الوفد الدائم، في جنيف، للجنة السورية ـ الفلسطينية التي تأسّست عام ١٩٢١.

من جهة أخرى، كان هذا الأمير الدرزي أحد أبرز الباعثين على النهضة والإصلاح الإسلامي. ولا شكّ أنه استوحى ذلك من خلال حضوره الحلقات الدراسية للإصلاحي الكبير الشيخ محمّد عبده، حيث لازمه لفترة طويلة، وكذلك صديقه الطرابلسي رشيد رضا الذي كتب سيرة حياة الأمير. وإثر وفاة عبده، استلم رضا إدارة نَشْر مجلّة «المنار»، التي كانت قناة أفكار الإسلام السياسي في تلك الحقبة (١٩٠٥). وعليه، راح الصديقان، وأحدهما من القاهرة، والآخر من جنيف، يحثّان، عبر مجلّتيهما، وفي سائر أنحاء العالم العربي الإسلامي، على النهضة الثقافية المعاصرة لمدرسة السَّلَفي جمال الدين الأفغاني، وعلى المبادئ الراقية في الثقافة العربية ولدى الشعب العربي. وهذا الالتزام العميق المقترن بالمعرفة جعل من شكيب أرسلان الوريث الأكثر شهرة لهذا الأخير.

كانت رؤية الأمير شكيب لنهضة الأمّة العربية واضحة جدًّا في كتابه «لماذا تأخَّرَ المسلمون وتقدَّمَ غيرهم؟»، الصادر عام ١٩٣٠، والذي يذكر فيه أسباب هذا التأخُّر، ومن ثمّ يطرح حلولاً، كاعتماد العلوم الغربية والتطوُّر التكنولوجي، إنّما مع ضرورة تمييز الفكر الموالي للغرب. وكان يعتقد أنّ إعادة بناء العالم العربي ينبغي أن تنطلق من الأخوّة في الأمّة، ونَفْض الجهل والتعصُّب!

ومن الحثّ على الأفكار الثورية إلى تأسيس الحلقات والمجلاّت الفكرية، مرورًا بالعمل الدبلوماسي المُكرَّس لخدمة القضايا العربية والإسلامية، كان من

الطبيعي أن يتواصل شكيب أرسلان مع النضالات التي شهدها المغرب العربي آنذاك، حيث نسج علاقات وثيقة مع الزعماء الثورويين هناك، كمسالي الحاج، وعبد السلام بنونه، وعبد الحميد بن باديس... وكانت أفكاره مصدر إلهام للوقوف في وجه فرنسا التي كانت تسعى لفصل المغرب عن العالم العربي.

ـ أيقونات في هويّة بني معروف

كان شكيب أرسلان معاصرًا لسلطان باشا الأطرش، وشكّل الاثنان نجمَين ساطعَين في مسيرة النضال الوطني، في مطلع القرن العشرين. وإذا كان شكيب وسلطان، إبّان الثورة العربية، في معسكرَين متقابلَين في ما يتعلّق باستراتيجيّات النضال من أجل تحرير الشعب العربي، إلاّ أنّ الاثنين كانا يمثّلان المسار الوطني الذي التحق به كمال جنبلاط في ما بعد. وثمّة عند هؤلاء الثلاثة سمات تشدّ واحدهم إلى الآخر، فيلتقون كممثِّلين للخصوصيّة الدرزية. هذه السمات هي: القلم، والبندقيّة، والحكمة!

كان الأمير شكيب، في مُجمَل مقالاته، يدافع عن قيم الوحدة العربية، ويثني على علاقة الاحترام المتبادل مع الغرب. في حين أنّ الآخر (أي سلطان باشا الأطرش)، وبقرار تحرُّري حازم، رفض أن يُخضعه هذا الغرب، المتمثِّل بفرنسا، وأن يمسك بمقاليد الأمر في بلاده.

وكان أن لَقيَت أخلاقيّتهما القتالية ردود فعل تجلّت في تشكيل الشبيبة ودعْم العروبيين، أيديولوجيًّا، الذين كانوا يناضلون ضدّ الاستعمار في سائر أرجاء العالم العربي، في ما بعد، استخدم كمال جنبلاط، النجم الساطع الثالث، عبارة الوطنية، وألهبت خُطَبه الشعب اللبناني، وأعطت الطائفة الدرزية قوّة التضامن في صراعات الستّينيات والحرب الأهلية عام ١٩٧٥.

ومع قلمه في النضال الوطني، أصبح شكيب أرسلان أيقونة، وشكّل مثالاً

يُحتذى لكلّ موحِّد درزي ينشد حياة وادعة في وديان وطنه، وينظر بحنان ومحبّة إلى جباله التي تُشكِّل انعكاسًا لحسّه الروحاني وتواصله مع الأرض. إنَّ قيم العدالة والإباء والتضامن تدفعه إلى الدفاع عن كلّ شيء، عندما تكون المعركة عادلة، خصوصًا إذا كان النضال من أجل الأمّة العربية وحضارتها التليدة.

الأمر نفسه ينسحب على سلطان باشا الأطرش، إنَّما مع بندقيّته للدفاع عن قيم الضيافة والتضامن مع مَن يلوذ به. بهذا العمل الرائع، يظهر مدى قوّة التقاليد والكرامة العشائريّة، ومن ثمَّ مواجهة دبّابات المُحتلّ فوق صهوة جواده. وهو بذلك يعبِّر عن إحدى أهمّ وصايا الموحِّدين، وأعني بها عدم الانحناء أمام مَن يسعى إلى إخضاعهم. وبذلك، وعبر هذين النموذجَين من النضال (القلم والبندقيّة)، أصبح شكيب وسلطان نجمَين ساطعَين يتماهى بهما بنو معروف. لقد أكّدا تفوُّق القلم والسيف، وهما الشعاران اللذان يجب أن ينطبعا في قلب كلّ موحِّد درزي.

ولم تلبث هاتان السِّمتان؛ المعرفة المتبحّرة والعدالة، أن اجتمعتا في شخصيّة كمال جنبلاط، تُضاف إليهما الحكمة، وهي العنصر الثالث في هذا المفصل من الهويّة الدرزية. إنَّها صفاتٌ ثلاث ينبغي بالمرء أن يتّصف بها كي يصبح سيِّد نفسه وسيِّد تاريخه. هذا ما ردّده المعلِّم كمال جنبلاط في كتابه Pour le Liban (من أجل لبنان)؛ فهو يؤكِّد على دور الحكمة في البحث عن السيطرة على الذات. ومن المستحيل الوصول إلى هذه الدرجة دون أن يصبح الإنسان سيِّد أرضه، حيث يعيش وحيث يتنامى إباؤه. وهذا ما يوضحه المعلِّم كمال جنبلاط في الصفحة ٦٣ من كتابه المذكور: «أنا درزي، سيِّد المختارة... يجب أن يكون المرء سيِّدًا بكلّ معنى الكلمة. ومعنى أيّ حياة هو أن يكون الإنسان سيِّد نفسه».

وفي عام ١٩٤٦، توفّي الأمير شكيب أرسلان، مخلِّفًا وراءه إرثًا ثقافيًا لا ينضب معينه، شكَّل مصدرًا لمواصلة النضال من أجل تأكيد الثقافة العربية

وتطوُّرها. ولَكَم نتمنّى أن يُصار إلى جمع مؤلَّفاته بغية إغناء المكتبات العربية، بل والأجنبية، لأننا بحاجة إلى مثل أفكاره في عالمنا المعاصر، حيث تبرز ضرورة الحوار واحترام الآخر، في هذه الأزمنة القاتمة التي اختطفت فيها الراديكاليّة العمياء رغبة الإنسان في أن يكون سيِّد نفسه.

وفي نهاية هذه العجالة أحيّي الدار التقدُّمية بحرارة لقيامها بهذا المشروع الثقافي المتميِّز.

د. جميل زغيب نيتو



الأمير شكيب أرسلان في حماه عام ١٩٣٧



سلطان باشا الأطرش



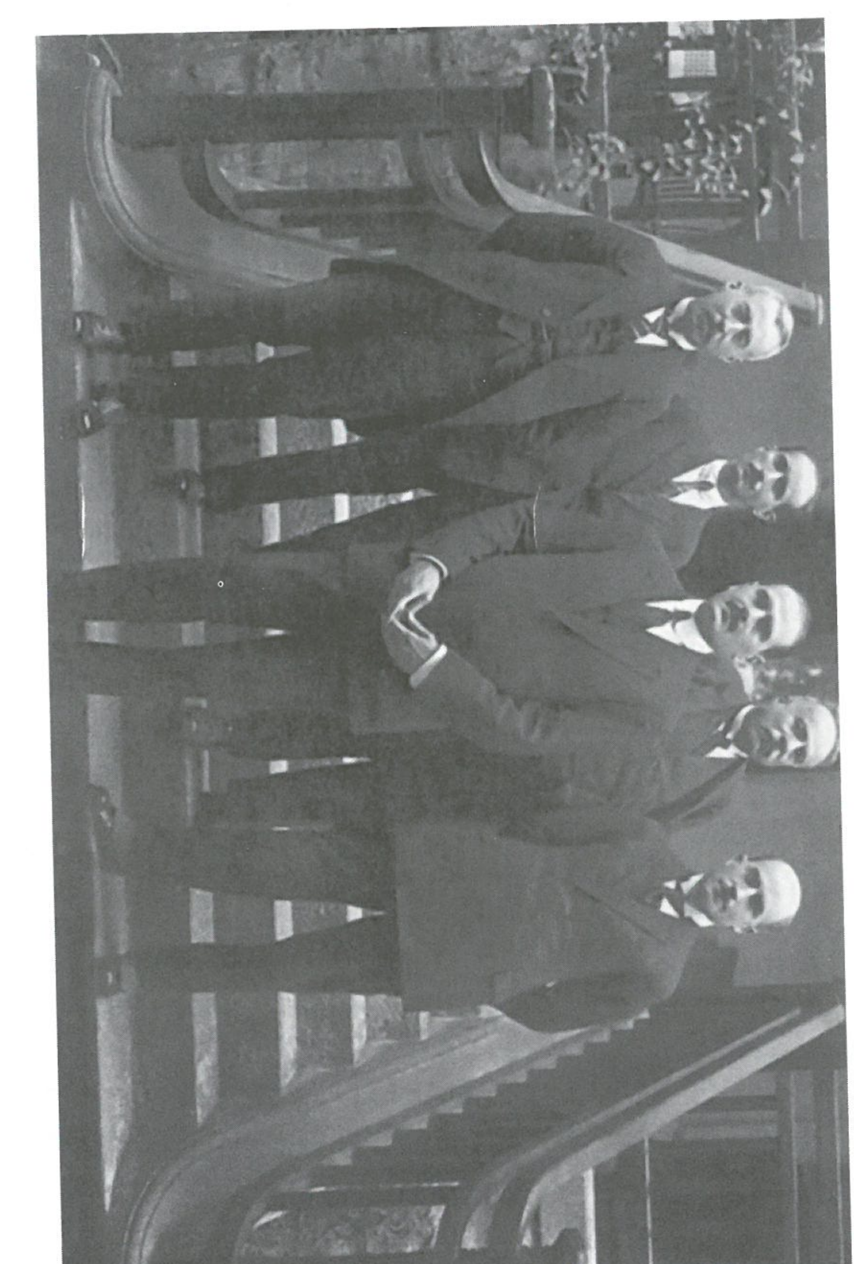
الأمير شكيب أرسلان في حديث مع إحدى الشخصيات ويبدو الأمير عادل بالوسط



هاشم الأتاسي (في الوسط) ،الأمير شكيب أرسلان ، سعدالله الجابري - إحسان الجابري



الأمير عادل أرسلان في لباس الثورة



الوفد السوري - جنيف عام ١٩٢٢



الأمير عادل أرسلان يتشاورمع فارس الخوري



الأمير عادل أرسلان مع الوفد السوري في الأمم المتحدة برئاسة دولة فارس الخوري



الأمير عادل أرسلان يراجع خطاباً للوفد السوري



الأمير شكيب أرسلان في باحة داره، حوله وفد من جبل الدروز للسلام عليه، وبعض الوفود اللبنانية

المقدّمة *

يُخطئ مَن يظنّ أنّ الحركات القائمة في سورية الآن هي نتيجة تعصُّب طائفي أو حركة إسلامية ضدّ المسيحيين، كما أنه يُخطئ مَن يتوهّم أنها حركة شيوعية أو لها صلة بالشيوعيين، أو أنها نتيجة دسائس أجنبية من تركية أو بريطانية أو غير ذلك، أو أنها غير صادرة عن شعور وطني بحت. ولا يغرب عن الفكر أنّ السوريين محبّون للسلم، بعيدون عن فكرة الحرب والثورات والقلاقل، يميلون إلى الهدوء والسكينة، يحبّون السلام والوئام. ويرجع ذلك لأسباب شتّى أهمّها: موقعهم الجغرافي وطبيعة بلادهم الجميلة، وخصب أراضيهم الزراعية، وفطرتهم الهادئة الساكنة.

ولكن أبت السلطات الإفرنسية في سورية منذ احتلّتها حتّى اليوم إلاّ أن تثير غضب هذه الأمّة، وأن تناصبها العداء، وأن تعمل على إثارة الضغائن الطائفية والمذهبية فيها، وأن تُلقي البلاد في هاوية من الفقر والإفلاس، وأن تسعى للحطّ من كرامة سكان البلاد؛ فقد ساءت الإدارة وانتشرت الفوضى والرشوة في جميع دوائر الحكومة، وكثُرت التعدّيات والاختلافات، وازدادت المهاجرة من البلاد، وعمّ الفقر جميع البقاع، فلم يبقَ تاجر إلاّ أعلن إفلاسه أو كاد، ولا صاحب ملك أو مزرعة إلاّ وهو مدين. أثمان الأملاك هبطت، وأسعار الأراضي نزلت، والأيدي العاملة قلّت، فكلّما مضى زمن على هذا الاحتلال ازداد الضيق بمقياس أوسع، وليس من مفكر في تلافي حالتها المستمرّة في سيرها من سيِّئ إلى أسوأ.

كلّ هذه الأسباب وأسباب أخرى متعدِّدة جعلت البلاد تغضب وتثور حفظًا لكرامتها، وإثباتًا لوجودها، وطلبًا للحياة والبقاء في هذا العالم، وسعيًا وراء استقلالها

* هذا الكرّاس منسوب للأمير، وهو معدود من كتبه وهذا أكيد. رغم أنّ أسلوب الكتاب وطريقة صياغته بعيدة بعض الشيء عن أسلوب الأمير، وهذا يرجع أنّ الكرّاس رُفع إلى عصبة الأمم بواسطة المؤتمر السوري الفلسطيني الذي كان يشغل الأمير أمين سرّه.

المغصوب الذي ضحّت من أجل الحصول عليه بآلاف من خيرة شبّانها ورجالها.

زدْ على ذلك جهل رجال السلطات الإفرنسية والمحلّية وسوء سياستهم وإدارتهم، وإن شئت فقُلْ قصر نظرهم. فقد كان ذلك داعيًا إلى نشوب ثورة الدروز وما تلاها، وإنَّ وقائع الحرب في جبل الدروز وانكسارات الجيش الإفرنسي وانهزاماته المتوالية المتعدِّدة أثارت روح الانتقام في صدور رجال السلطة في سورية، ولكن ممَّن؟ من الأبرياء الآمنين في بيوتهم، من النساء، من الشيوخ والأطفال، من البلاد الهادئة الساكنة المطمئنّة، من دمشق التاريخية العظيمة بآثارها الخالدة، كلّ ذلك لا لشيء غير المَيْل إلى التشفّي والانتقام، لانكساراتهم المتوالية في ساحات القتال. وقد أقدموا عليه إرواءً لغليل صدورهم وحبًّا لسفك دماء الأبرياء، ورغبةً بتدمير بيوت الآمنين المطمئنّين من النساء والشيوخ وإحراقها.

إنَّ انكسارات الجيش المتوالية، وعجز الحكومة العسكري والإداري، وجهلها حسن التصرُّف بالأمور، وشدّة ضغطها وتضييقها على البلاد الآمنة، وانتشار فكرة الانتقام من أهل البلاد، واستفحال أمر الفقر والفاقة، ونفور الأهالي من حكومة تعُدّها ألعوبة، كلّ ذلك كان داعيًا كبيرًا لتأليف العصابات وهجمات البدو وغارات العربان وكثرة الجرائم. فقد انتشرت على أثره العصابات في أقضية وادي العجم، والقنَيْطرة، ودوما، والنبك، وجيرود، والزبداني؛ وهذه الأقضية محيطة بمدينة دمشق من أطرافها الأربعة. ثمَّ قيام عصابات حوالي مدينة حماه، وحلب، ودير الزور، مؤلَّفة من بدو وحضر. ثمَّ عصابات في المنطقة الساحلية في قضاءي حاصبيّا وراشيّا و في غيرها من المراكز والنواحي.

وفي خلال ذلك كانت الصحف تفيض بالبلاغات الرسمية مؤكِّدة أنَّ السكينة مستتبّة في سورية كلّها والأمن منتشر اللواء، وما بلاغاتهم إلاّ تخرُّصات وأضاليل.

- عسف السلطة

وأخيرًا تفاقم الأمر وازداد الاستياء من الحكومة ومن أعمالها لسوء تدبيرها

وعجزها، ومحاولتها التشبُّث بطرق عنيفة منها، إبعاد الرجال المفكّرين من أصحاب المكانة ومن الشبّان خرّيجي المدارس العالية والآمنين الهادئين، وسجن غير القليل من سكان مدينة دمشق وغيرها، لا لذنب سوى أنهم أنشأوا حزبًا في دمشق يدعى حزب الشعب، أُسِّس بإذن الحكومة المحلّية والسلطة الإفرنسية بعد موافقتهما على برنامجه، ولم يعقد سوى بضع جلسات، ثمَّ أكرهت السلطة الباقين من أعضائه على الفرار من البلاد تخلُّصًا من الحبس والنفي والتغريب والتعذيب.

وفي غضون ذلك تألّفت عصابة في متنزَّه دمشق الوحيد، المعروف بمتنزَّه دمر، وهو يبعد عن دمشق عشرة كيلومترات، فتصادمت مع قوّات من الدرك والجيش الإفرنسي فدحرتها، حينئذٍ توالى إرسال القوّات إليها، فكانت ترجع كلّها بالفشل، حتّى إنَّ كبار القوّاد العسكريين مثل: الجنرال غاملان والجنرال ساراي كانوا لا يمرّون من هذا الطريق في أثناء سفرهم من بيروت إلى دمشق إلاّ والسيّارات المسلَّحة ترافقهم في الذهاب والإياب.

- عصابة الغوطة

وقد تألَّفت في خلال ذلك عصابة أخرى في غابة تدعى الزور في قلب الغوطة، واقعة شرق دمشق، وتبعد عنها أربعة أو خمسة كيلومترات. وهي عبارة عن غابة كثيفة، تمتدّ من باب دمشق الشرقي إلى مسافة عشرة كيلومترات طولاً، وأمّا عرضها فيتراوح بين مايتي متر وكيلومترين. وقريبًا من جانبي هذه الأحراج طرق زراعة، يمرّ بها أصحاب الأراضي والمَزارع التي تحيط بهذا الزور، وفيها ما يزيد على ماية قرية كبيرة عامرة كلّها بساتين وحدائق. فبدأت العصابة تنمو ويكثُر عددها من ٢٠ إلى ٥٠ إلى ١٠٠ إلى أكثر من ذلك، برئاسة رجل يدعى حسن الخراط من أهالي دمشق، كان رئيسًا للحرّاس فيها. وبدأ أفرادها يروحون ويغدون في الطرقات العمومية التي هي على جانبي الزور (منطقتهم)، وكانوا لا يتعرَّضون لأحد من الأهالي المارّين من هناك، بل كانوا يطلبون منهم شيئًا واحدًا، وهو أن

يخبروا الحكومة بوجودهم في هذا المحلّ، وأن يكلّفوا الحكومة إرسال قوّة من جيشها لقتالهم، ويعلنون أن لا غاية لهم سوى إنقاذ بلادهم من الأجنبي وسلطته والتخلّص من ضغطه وعسفه وجوره، لذلك لا يريدون أن يتعرّضوا لأحد من الأهالي ولا للقرويين.

فكان كلّ مَن رآهم في إيابه إلى دمشق يقصّ الخبر على الحكومة ورجالها، ولكن ما من مكترث، إلى أن أرسلت الحكومة المحلّية قوّة مؤلّفة من سبعين دركيًا وخمسة ضبّاط، وعوضًا عن أن تذهب القوّة لمواجهة رجال العصابة قصدت إلى قرية تدعى المليحة، قريبة من النقطة الموجودة فيها العصابة، وتفرّق أفرادها في بيوت الفلاّحين طلبًا للراحة والنوم.

وكان بعض أفراد العصابة، قبل وصول القوّة إلى القرية، يراقبون كلّ مَن يمرّ بالطرقات خارجًا من دمشق، فاتّفق أن رأوا قوّة الدرك التي التجأت إلى القرية، فانتظروا انتصاف الليل وأتوا برجالهم البالغ عددهم، على ما يقال، خمسين مقاتلاً إلى القرية، وبدأوا يطرقون أبواب البيوت التي التجأ إليها رجال الدرك ويستخرجون واحدًا منهم أو اثنين من كلّ دار، حتّى أتوا على آخرهم من أفراد وضبّاط. وذهبوا بهم إلى مركز العصابة، وهناك أخذت العصابة من الأفراد أسلحتهم وخيولهم وألبستهم الرسمية، وأطلقت سبيلهم وسمحت لهم بالذهاب إلى دمشق طالبة منهم أعلام الحكومة بكلّ ما جرى، وحثّها على أن ترسل قوّة أكبر لمنازلتهم، وقد أرسلوا الضبّاط الخمسة إلى جبل الدروز أسرى، وكان مدير الدرك العامّ في دمشق أثناء هذه الحادثة يلهو في أحد المَحال العمومية حتّى الصباح، غير مهتمّ بما حدث ويحدث.

ولا تَسَلْ عمّا تركت هذه الحادثة من الوقع في النفوس عند شيوع خبرها في دمشق، ولا تَسَلْ عن هيبة الحكومة عندئذٍ، ولا عن اضطراب رجال الأمن العامّ، ولا عن ازدياد عدد العصابات بمَن انضمّ إليها عند ظهور عجز الحكومة، فقد كان ذلك فضيحة وعبرة للمعتبِر.

وبعد مضيّ ثلاثة أيام على هذه الحادثة، أرسلت السلطة قوّة من الدرك ومن جندها ودبّاباتها وسيّاراتها المصفّحة وطيّاراتها إلى مركز العصابة، وتصادمت هذه القوّة مع رجال العصابة طيلة ذلك اليوم، ولم تُعلَم نتيجة القتال إلاّ في اليوم التالي، إذ تبيّن أنّ المعركة أسفرت عن قتلى كثيرين من الجيش يبلغ عددهم الثلاثمائة، وأنّ إحدى الدبّابات تعطّلت، وأنّ طيّارة أُسقِطت، وأنّ العصابة تشتّتت!

- عرض جثث القتلى

وفي اليوم نفسه، أي اليوم ١٤ أكتوبر، شهد الدمشقيون منظرًا تنخلع لهوله القلوب وتعافه نفوس أوحش أمم الأرض، وهو منظر ستّين أو سبعين شخصًا من الشيوخ القرويين والمكارين والجمّالة مشدودي الأكتاف، ومن ورائهم الجِمال تحمل جثثًا من القتلى، وفريق منهم موثق اليدَين ممّا يدلّ على أنهم أُعدِموا بعد وثاقهم. ومن وراء ذلك عربة نقل (طُنبر) فيها عدّة جثث يموج بعضها فوق بعض. ومن بين الجثث يد صغيرة تدلّ على أنّ صاحبها طفل لا يتجاوز العاشرة من عمره.

عُرِض هذا المشهد بين صفوف الجُنْد الإفرنسي والمحلّي، وضبّاط الجيش ورجاله، وبعض رجال الحكومة في أكبر ساحة في مدينة دمشق أمام دار البلديّة وسرايّ الحكومة. وبقي هذا المشهد معروضًا للأنظار مدّة أربع أو خمس ساعات، تمرّ به ألوف من الناس فيعلو وجوههم الاصفرار، وترتسم عليها آيات الاستفظاع والاستنكار.

وقد جُلّ الخطب وعَظُم الأمر عندما عَلِمَ الناس أنّ الموثقي الأكتاف من الأسرى والمعروضين من القتلى إن هم إلاّ قرويون وباعة وفلاّحون، وليس بينهم من رجال العصابات واحد. وإنّما فعلت الهمجيّة ما فعلته بهم بغية إلقاء الرعب في قلوب أهالي دمشق، فإنّ السلطة بعد أن عجزت عن الفتك بأحد من رجال العصابة، أتت بهؤلاء الرجال، وقتلت من المارّة والفلاّحين مَن قتلت حتّى يقال إنّها فتكت بالعصابة وأفرادها.

وأُلقِي هؤلاء الأبرياء المقتولون في مرقدهم الأخير، لا يدري أحد بأيّ لسان تخاطب أرواحهم الحكومة الغاشمة المحتلّة في البلاد. وسيق الأبرياء من الأسرى إلى غياهب السجون، وقيل إنّ عشرة منهم قُتِلوا بأسنّة الحراب قبل وصولهم إلى السجن.

وتوجَّه كلّ مَن شاهد هذا المنظر إلى داره، فليت شعري بماذا كان يشعر وهو يرى ما رآه من ضروب التوحُّش والهمجيّة؟ وكيف كان يقصّ منظر هذا المشهد على عائلته وأطفاله؟ بل لا أدري كيف يمكن تصوير ما أفضت إليه حال مدينة دمشق بعد هذا المشهد الفظيع!

والأفظع من هذا المنظر، أنّ اثنين متبرنطين (١) قال أحدهما لرفيقه عند مرور جثث القتلى Ah! ça c'est joli à voir (آه، ما أجمل هذا المنظر!) ولا أدري أيّ قلب يحمله بين جانبَيه ذلك الذي يقوى على التفوُّه بهذا القول.

ـ النهب والإحراق

وفي اليوم نفسه شوهِد من أعالي مدينة دمشق دخّان كثيف من جهة الشرق، وبعد التثبُّت عُلِمَ أنّ السلطة أرسلت جنودها إلى قرى: المليحة، والبلاط، وجسرين، ودير بحدل، وأمرت أفرادها بغزو هذه القرى ونهب ما فيها من المواشي والأبقار والمفروشات والألبسة والأواني، وأباحت لهم بيعها أينما شاءوا في أسواق مدينة دمشق بالمزاد العلني. ثمّ أمرت بعد ذلك بإحراق القرى المذكورة.

وهؤلاء الجنود هم من الجركس والأرمن الذين أتت بهم السلطة الإفرنسية وألحقتهم بجيشها، وخصَّتهم بتخصيصات من عندها، وجعلتهم تحت إمرة ضبّاط إفرنسيين، أعطتهم أمرًا بالغزو ـ الذي يعاب على القبائل البدوية الراحلة ـ نعم، أمرت السلطة الإفرنسية جيشها بالغزو والنهب والسلب وبيع ما يسلبه رجال هذا

(١) أي يعتمرون البرنيطة، أي القبّعة. (المحقّق).

الجيش بالمزاد العلني في مدينة دمشق. حتّى إنّ بعض متنفِّذي القرويين راجعوا السلطة في الشكاية من أعمال هذا الجند، فما كان من مندوب المفوَّض السامي المسيو أوبوار وغيره من رجال السلطة إلاّ أن قالوا لأصحاب الشكاوى: ما عليكم إلاّ شراء منهوباتكم من الجند بالمزاد العلني! وفعلاً كان قسم منهم يشتري بعض أبقاره ومواشيه على هذا الوجه.

وعلى أثر ذلك كنت ترى أسواق دمشق وشوارعها ملأى بالمواشي والأبقار، وفرسان الجركس والأرمن يحملون على خيولهم أنواع السجّاد والمفروشات والملبوسات يعرضونها بالمزاد العلني في كلّ شارع من شوارع المدينة، حتّى إذا امتنع أهالي دمشق عن مشترى شيء من هؤلاء بدأوا بإرسالها إلى بيروت وغيرها من المدن لبيعها هنالك.

ـ إحراق القرى

وبعد النهب والسلب كان الجنود الإفرنسيون يتوجَّهون إلى القرى المنهوبة ويحرقونها بالبترول، فكنت ترى إذ ذاك النساء والشيوخ والأطفال لاجئين إلى المدينة، هائمين على وجوههم، هاربين من "كابوس التمدُّن" إلى أسواق دمشق وملاجئها وجوامعها، لا يدرون أين يذهبون، فازداد استفظاع أهالي دمشق واستنكارهم لهذا التوحُّش..

أمّا هذه القرى المُحرَقة، ففيها من البيوت الجميلة المحاطة بالحدائق الغنّاء ذات الأحواض والنوافير عدد كثير، وفيها من المفروشات الثمينة والأثاث الغالي مثل ما يوجد في أعظم بيوت المدينة؛ لأنّ الكثيرين من أصحابها هم من كبار أعيان دمشق، ومنهم مَن ترك المدينة وانتقل إلى القرى وسكنها مدّة طويلة وعمّرها.

ـ إحراق جرمانا والاعتداء على النساء

وفي ١٥ أكتوبر توجَّهت قوّة من الجند إلى قرية جرمانا التي تبعد خمسة

كيلومترات عن دمشق، فنهبوا ما فيها من الملبوسات والمفروشات والمواشي والأغنام وحُلي النساء، ثمّ أحرقوا القرية على الصورة التي أحرقوا بها بقيّة القرى، ولم يكن ما انتاب أصحاب هذه القرية من الهيام على وجوههم والإيواء إلى المغاور والكهوف أقلّ ممّا أصاب غيرهم من أهل القرى المُحرَقة قبلها.

ولمّا كان اليوم التالي وكان بعض البيوت من القرية المذكورة لم تتّصل به النار، توجَّهت قوّة من الجند لإتمام عملية الحريق، واتّفق إذ ذاك أنّ بعض النسوة اللائي التجأْنَ إلى دمشق، توجَّهْنَ إلى قريتهنّ لأخذ بعض ما بقي تحت الأنقاض من حبوب ومفروشات وغير ذلك. فتعرَّض لهُنَّ الجند وسلَب ما أخرجْنَ من تحت الردم، وتجاوز عليهنّ وعلى أعراضهنّ. فلم يستطع رجال هذه القرية المتشرِّدون في أطرافها صبرًا، فتجمَّع قسم منهم وتصادم مع الجند مصادمة ألجأت الجند إلى الفرار لمدينة دمشق، فأرسلت الحكومة قوّة كبيرة لمصادمتهم أدّت إلى معركة دامت بين الفريقَين من قُبيل الظهر حتّى المساء على أبواب دمشق، وكان يُسمَع آنئذٍ دويّ الرصاص من بعض أحياء المدينة، والرعب يستولي على القلوب والكلّ يخشى عاقبة المصير.

- نكبة حماه

وفي خلال هذه الأيام الأخيرة حدثت حادثة حماه، ثمّ نكبتها. وتفصيل ذلك أنّ أحد ضبّاط الجيش المختلط - وهذا الجيش تحت إمرة ضبّاط إفرنسيين، وأكثر أفراده من الأرمن الغرباء - المُسمّى الكابتين فوزي، اتّفق لنفور بينه وبين بعض الضبّاط الإفرنسيين، على ما يظهر، مع جماعة من البدو النازلين بأطراف مدينة حماه، على أن تهاجم هذه القوّة البدوية، ومَن انضمّ إليها من أفراد جيشه - المدينة التي لم يكن فيها سوى بضعة وعشرين دركيًّا فقط - وهكذا كان وقد أرسلت الحكومة قوّة لإخراجهم، فتوقّفت وانسحبت القوّة الثائرة من المدينة إلى خارجها.

ولكنّ السلطة لم تكتفِ بذلك، بل ظلّت مصوَّبة نار رشّاشاتها ومدافعها على

المدينة وأسواقها، فقتلت نفوسًا بريئة ونساء وأطفالاً، وزادت على ذلك أنها طلبت من أهالي المدينة الهادئين أن يدفعوا كمّية من البنادق في وقت حدَّدته لهم.

ولمّا لم يمكن جمع العدد المطلوب من السلاح، حلّقت بعض الطيّارات فوق أغنى حيّ في مدينة حماه عند انقضاء الأجل المضروب، وبدأت تُطلق قنابلها. ثمّ ضاعفت المقدار المفروض من السلاح على أهالي المدينة، وعيَّنت لهم وقتًا آخر. ولكن المدينة التي عجزت عن تأدية نصف المقدار لم يمكنها والحالة هذه تقديم ما طلب مضاعفًا. وعند انتهاء الأجل المعيَّن بدأت المدفعيّة تُطلق قذائفها ثانيةً على الأحياء التي يكثر فيها التصاق البيوت بعضها ببعض، فإذا البيوت تتهدَّم فوق أصحابها وساكنيها من النساء والأطفال، والمحلاّت التجارية تحترق بما فيها.

ولمّا هال هذا العمل الفظيع أهالي المدينة، خرج قسم منهم رجالاً ونساء طالبين من مركز القيادة إيقاف التدمير والضرب، متعهِّدين بأنهم سيذهبون إلى البدو ويشترون منهم ما طلبته الحكومة من البنادق لعدم وجود أسلحة لديهم، ولكن كان جواب القائد: إنّني لا أوافق على طلبكم هذا إلاّ بعد ما ينتهي إطلاق المقدار المعيَّن من القذائف وهو مائة قذيفة، وكان عدد المرميّات ساعتئذٍ لا يتجاوز الثلاثين. وهكذا كان فإنّه داوم على ضرب المدينة، حتّى أتى على آخر المائة، وكان عدد القتلى عظيمًا من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ولا يمكن إحصاء ما كان تحت الردم من القتلى، وستنجلي حوادث ذلك مع توالي الأيام. وقد أُحرِق ودُمِّر أكثر من ثلاثمائة محلّ تجاري ونحو مائتي دار من الدور الكبيرة، وسيق إلى السجن أكابر مدينة حماه وأغنياؤها وشبّانها، بينما الغرامات الحربية مع كمّيات من السلاح تُفرَض على المدينة بصورة متكرِّرة، والتوقيف والسجن متماديان.

- صدى حادثة حماه في دمشق

وصل معظم حوادث حماه إلى دمشق، وانتشرت أخبارها المفصَّلة نهار

السبت ١٧ أكتوبر، فاستفظع الناس الأمر وهالهم هذا العمل الجهنّمي، وبدأوا يحاولون التوفيق بين نظريّات التمدُّن والتوحُّش. وكاد الكلّ لا يصدِّق الخبر لولا تكرُّر الروايات المؤكِّدة لوقوعه، وهم لا يدرون أيّ مصير يُخَبِّئه هذا الدهر لدمشق عروس الشرق وزهرة البلاد العربية.

وفي هذا اليوم تضافرت الأخبار عن انتشار الفوضى في أطراف مدينة دمشق، وكثرت اعتداءات رجال الجيش من جركس وأرمن، وازداد ضعف الحكومة وعجزها، وكَثُر عدد اللاجئين واللاجئات من القرى المُحرَقة، وكلّهم بحالة يُرثى لها. فبينما كان سكان دمشق يرثْون لحالة هؤلاء البؤساء ويعنون بإيوائهم وإطعامهم، كانت حوادث العصابات المطاردة قوّات الحكومة في كلّ قرية وكلّ ناحية تنتشر، وفظائع رجال الجيش تزداد فتزيد في هياج السكان.

وفي مساء اليوم المذكور قَدِمَ من بيروت الجنرال ساراي ومعه لجنة تحقيق عن انكسارات الجيش في المصادمات الدرزية، فظنّ الناس أنّ الجنرال قادر على أن يدرأ مخاوفهم بما سيتّخذه من التدابير الناجعة في سبيل تسكين روعهم وإزالة مخاوفهم. فتوجّه لمقابلته وَفَدَ معه بعض رجالات مدينة حماه وبعض رجال الحكومة، وطلبوا منه التخفيف من الضربات النازلة بمدينة حماه من قِبَل السلطة، واحتجّوا لديه على هذا المنكَر من قتل وحبس وتدمير وتجاوز على النساء وغير ذلك من الفظائع، فقيل إنّه وَعَدَ خيرًا.

ـ بيان كاذب

وكان قد شاع في دمشق قبل يومَين أنّ الحكومة قرّرت أن تضرب بمدافعها بعض أحيائها من الجهة الجنوبية كالميدان والشاغور، وذلك لأنّ بين رجال العصابة الموجودة قريبًا من المدينة نفرًا من أهالي هاتَين المحلّتَين. وانتشر هذا الخبر في المحلّتَين، فطفق قسم من الأهالي يُخرِج نساءه وأطفاله وبعض حوائجه لبعض المحلاّت

الخارجة عن دائرة هاتَين المحلّتَين، فبلغ الحكومة ذلك فأصدرت بيانًا رسميًّا، أعلنت فيه أنّ الإشاعة القائلة بأنّ الحكومة تريد ضرب المحلّتَين المذكورتَين بمدافعها لا صحّة لها، وأنّ كلّ مَن يُخرِج مفروشات أو أمتعة من داره يكون عرضة للجزاء والحبس. وفي الحال توجَّهت قوّة من الشرطة إلى هاتَين المحلّتَين، وأرجعت قهرًا مَن خرج من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم.

وفي يوم السبت ١٧ أكتوبر تواترت الإشاعة بأنّ الحكومة قرّرت ضرب إحدى هاتَين المحلّتَين، وهي محلّة الميدان، رغمًا عن إعلانها تكذيب ذلك رسميًّا، وخصوصًا بعد أن ثبت نقلاً عن بعض المراجع أنّ أربع طيّارات تلقّت أمرًا بضرب حيّ الميدان عند أول فرصة، وكانت حينذاك حوادث ضرب مدينة حماه قد انتشرت في دمشق، فتوجّه بعض الناس لمراجعة رئيس الحكومة والسعي لحمله على التشبُّث لدى الجنرال والمراجع الإيجابية بعدم ضرب المدينة الهادئة (دمشق). وإذا كان للحكومة حساب مع رجال العصابات، فما عليها إلاّ أن تُرسِل قوّة لمنازلتهم ومطاردتهم حيث هم في خارج المدينة لا أن تُلقي قنابلها على بيوت الضعفاء من النساء والشيوخ الآمنين المطمئنّين في دورهم.

ـ صبحي بركات

قلنا آنفًا إنّ بعض الناس راجعوا رئيس الحكومة في التوسُّط لدى الإفرنسيين بالكفّ عن تدمير ناحية من دمشق. ولا بُدَّ لنا من الإشارة إلى أنّ هذا الرجل ليس بسوريّ ولا عربيّ، وإنّما هو تركيّ الأصل واللغة والمنشأ، وقد سبق له أن عرف بالميل إلى الشرّ المنطوي على أحقاد شخصية أو مصالح خاصّة به، وكان له شيء من النفوذ على أثر اغتصابه بضعة أفدنة من بعض المساكين في شمالي سورية على الحدود التركية، ولم يتمكّن أصحابها من إقامة الدعوى عليه خوفًا من شرّه، فنزحوا عن بلادهم واستوطنوا تركيا منذ عهد قريب.

استطاع هذا الرجل أن يقوم بشيء من الدعوة إلى نفسه، ووجد فيه الجنرال غورو ـ أول ممثّلي السلطة الإفرنسية في سورية ـ رجلاً يصحّ اتّخاذه أداة لتنفيذ أغراض الاستعمار في هذه البلاد، فلم يلبث أن استخدمه في شيء من الدسائس فنجح صبحي، وسَرَّ به الجنرال غورو، ثمَّ ما عتم أن انقاد له انقيادًا أعمى، كما أنه تمكّن بنفاقه ودسائسه من تمشية أموره مع الجنرال ويغاند.

وأخيرًا، بعد أن وصل الجنرال ساراي إلى سورية، رأى رئيس الحكومة فيه روحًا وعقلاً يسهل الاستيلاء عليهما من دون مشقّة أو تعب، ففعل. وقد صرّح صبحي بك بركات نفسه أمام بعضهم بأنَّ الجنرال ساراي رجل طيِّب القلب ولكنّه صغير العقل...!

وقد استطاع رئيس الحكومة هذا، أن يزيِّن للجنرال ساراي وساوسه الشيطانية، وأن يتغلَّب على عقله، حتى إنَّ الجنرال أعلن في مواقف متعدِّدة أنه «يعتمد كلّ الاعتماد على رئيس الحكومة»، ولم يزَل يواصل إعلان ثقته به حتى الساعة الأخيرة من أيامه في سورية.

كان صبحي بك بركات، وما زال، يصرِّح أمام الوطنيين بأنه يسخط كلّ السخط على مَن يراجع رجال السلطة الإفرنسية في أمر من الأمور، وينذرهم بأنَّ مَن يغضب عليه فمصيره النفي والسجن والتغريب، وهو يدعم كلماته هذه بأنَّ الجنرال ساراي ينفذ كلّ ما يطلبه منه بلا رويّة ولا تردُّد... ويؤيِّد دعواه بأنَّ رجال حزب الشعب المبعَدين في قلعة أرواد وفي قرية حسجة هم من ضحاياه لأنه هو شاء إبعادهم، والجنرال وافق على مشيئته...

لهذا خافه بعض الناس وأصبحوا يتوسَّطونه في أكثر ما يتعلّق بالسلطة العسكرية. ولهذا السبب ذاته رأى بعض الرجال الذين ذهبوا لطلب الكفّ عن ضرب محلّة الميدان أن يراجعوه في التوسُّط لدى الجنرال غاملان بالعدول، إن كان مصمِّمًا على ذلك كما أُشيع.

ـ حديث مع رئيس الحكومة

بحث مقابلو رئيس الحكومة معه في سوء نتائج الضرب، وأبانوا له أنَّ السلطة بإحراقها القرى وتدميرها تزيد في عدد رجال العصابات الثائرة، لأنَّ كلّ مَن تحترق داره يُرسِل نساءه إلى المدينة، ويسعى للحصول على بندقيّة، ويلتحق بالعصابات، وهكذا دواليك. فوعدهم رئيس الحكومة بأنه سيسعى لدى الجنرال في هذا الشأن، وقد أفضى إلى أحدهم همسًا بأنَّ صغار المأمورين الملكيين، وصغار الضبّاط، وخصوم الجنرال ساراي من رجال السلطة الإفرنسية، تشبّثوا كثيرًا لدى المراجع العليا في باريس لسحب الجنرال نظرًا لخصومتهم معه حزبيًّا أو شخصيًّا أو مذهبيًّا، فكانت مساعيهم كلّها تذهب أدراج الرياح، وما كانت باريس تُصغي لندائهم وتسعى لسحب الجنرال من سورية، فهم يريدون ضرب المدينة ويزيِّنون للجنرال وللمقرّبين منه أنَّ المدينة ثائرة، تريد الفتك برجال الجيش، وأنها لا يمكن أن تخضع إلاّ للقوّة... إلخ. وقال بعض كلماته هذه: إنَّ القيام بعمل فظيع سيجعل الجنرال مسؤولاً أمام حكومته في باريس، فتضطرّ عندئذٍ لخلعه من الفوضيّة في سورية، ويكونون بذلك قد حصلوا على ما يبتغون.

يا للجريمة! ويا للفظاعة! مَن يسمع هذا الحديث ولا يسخط لهذه الطريقة الفظيعة التي يستخدمها عمّال الاستعمار للانتقام من الجنرال الإفرنسي على حساب سورية وخرابها والتفظيع بها؟ ثمَّ ما الحيلة، وما العمل، والآمر المطلق في هذه البلاد التعيسة لم يكن غير ذلك الجنرال الضائع الصواب، وهذا الرئيس الشرّير، وتلك الأفاعي المبثوثة في جميع الأطراف من شراذم الموظّفين في الدوائر الإفرنسية والمحلّية؟

ـ لمَن المشتكى

لم يبقَ واسطة من الوسائط إلاّ التمستها هذه الأمّة المنكودة الطالع منذ سبع

سنوات حتّى الآن لبثّ شكواها ورفع ندائها، ولم تترك وسيلة من الوسائل إلاّ اتّخذتها لإسماع صوتها إلى جمعيّة الأمم، إلى الرأي العامّ في أوروبا وأمريكا، إلى فرنسا نفسها، إلى كبار رجالها وصحفها، إلى شيوخها ونوّابها، إلى أحزاب يمينها ويسارها، إلى اشتراكييها ومستعمريها... ولكن أنت تنفخ في رماد فلا مجيب ولا مغيث! ثمّ إنّ الأشخاص الذين راجعوا رئيس الحكومة، اتّفقوا معه على أن يؤلّفوا وفدًا كبيرًا يذهب إليه وهو يتوسّط لدى الجنرال بإسماع مطالبيه ومعروضاته. وتقرّر أن يُؤلّف الوفد ويتوجّه لمقابلة الرئيس والجنرال في اليوم التالي، أي يوم الاثنين ١٩ أكتوبر. وبُدئ السعي بتأليف هذا الوفد وتنظيم لائحة يعرض بها مقدّموها مطاليب الأمّة.

ولكن أبت الغطرسة الهمجية والنفوس البربرية إلاّ أن تنفّذ ما تكنّه تلك الروح الخبيثة من إحراق وتدمير، وفتك بالنفوس البريئة، وارتكاب أفظع أنواع الفظائع وانتهاك جميع الحرمات، باسم الانتداب لا الاستعمار! وبحجّة إيصال سورية إلى حظيرة المدنيّة...

ـ اليوم الرهيب! كيف دُمّرت عاصمة الأمويين؟

كان يوم الأحد ١٨ أكتوبر، والأيام التي تلته، أيامًا لم تشهد مدينة دمشق ولا غيرها من مدن العالم مثلها ولا شبيهًا بها، حتّى في زمن هولاكو البربري تيمورلنك الوحشي ونيرون الجهنّمي.

وتفصيل ذلك: أنّ قوى الحكومة تراجعت في يومي السبت والأحد إلى المدينة، لعجزها عن مقاومة العصابات في خارج المدينة ولانكساراتها المتوالية. وانقضى نهار السبت، ورجال العصابات في خارج المدينة يسعون لمنازلة قوى الحكومة، حتّى إذا لم يجدوا لها أثرًا قرّروا على ما يظهر من الحوادث الأخيرة أن ينازلوها أينما كانت. ففي ضحى يوم الأحد بينما كان أحد الجند الجراكسة الملحقين بالجيش

الإفرنسي يبيع سجّادة من منهوباته بالمزاد العلني، أتى صاحب السجّادة واعترضه قائلاً: هذه سجّادتي. وكان شُرطيٌّ إذ ذاك واقفًا، فتخاصم الجندي وصاحب السجّادة، وما كان من الجندي إلاّ أن أطلق نار بندقيّته على الرجل المسكين فأرداه قتيلاً مع اثنين من المارّة، ولم ينبس الشرطي بكلمة لأنه مأمور أن لا يعترض أحدًا من هؤلاء الجنود التابعين للجيش الإفرنسي.

وذُعِرت النفوس عند سماعها إطلاق الرصاص، فأُغلِقت الحوانيت، وهرب كلٌّ إلى داره وهو يظنّ أنّ رجال العصابات قد هاجموا المدينة، فاستولى الرعب والاضطراب على كلّ مَن في المدينة.

وما هي إلاّ ساعة أو اثنتان حتّى هدأ رَوع السكان بعد انجلاء الحقيقة، واستولت السكينة على المدينة، فرجع كلٌّ إلى حانوته وبيعه وشرائه.

ولكن عصفت الرياح في هذه الأثناء، وثارت زوبعة طبيعية كادت تخنق المارّة بغبارها، وتلبّدت السماء بغيم كثيف مشيرة إلى أنّ السماء اشتركت وأهالي المدينة بالاضطراب والخوف، أو أنها تُنذِر المدينة بما سيحدث بها عمّا قريب. وما أتت الساعة الرابعة بعد الظهر من اليوم نفسه، حتّى رأيت الناس يتراكضون من كلّ صوب وحدب، كلٌّ يلجأ إلى داره مذعورًا، ولا أحد يدري شيئًا، وإذا بأزيز الرصاص يخترق الفضاء، وتبعه دويّ المدافع وسقوط قنابلها على بعض الأحياء والبيوت.

أُطلقت قنابل المدافع من قلعة المزّة ـ وهي تطلّ على المدينة من غربيها ـ على البيوت الآمنة المطمئنّة من دون أن يسبقها إنذار أو خبر للأهالي العُزّل الأبرياء أو للأجانب أو القناصل، خلافًا لمقتضيات الحقوق الدولية، وعصيانًا لكلّ قانون في البشر.

وتفصيل الحادث أنّ رجال العصابات عندما شاهدوا انسحاب قوى الحكومة

من أمامهم، والتجاءها إلى المدينة، دخلوها من الجهة الجنوبية جادين في أثر رجال السلطتَين الإفرنسية والمحلّية في الشوارع. وكان عددهم لا يتجاوز الماية أو الماية والخمسين على الأكثر، فعمدوا إلى مخافر الشرطة، فنزعوا سلاح الشرطيين وسلبوهم ما معهم من ذخيرة وعتاد، ونشبت بينهم وبين جند الحكومة معركة دامت ساعة واحدة، وأسفرت عن اندحار قوى السلطة واستيلاء رجال العصابة على أكثر من نصف المدينة.

وكان على السلطة في هذه الحال أن تنسحب إلى خارج المدينة وتتّخذ طرقًا أخرى للتنكيل برجال العصابات، بدلاً من تدمير تلك المدينة التاريخية العظيمة على رؤوس مَن فيها من الأجانب والوطنيين والنساء والأطفال، غير أنها نصبت دبّاباتها ومصفّحاتها وأسلاكها الشائكة في جادة الدرويشية والسنجقدار وأمام القلعة ودوائر الحكومة، حتّى دار مندوب المفوّض السامي في الصالحيّة، وهو كلّ ما كانت تشغله قوى الحكومة من المدينة. وكانت في حيّ المسيحيين قوّة صغيرة، فسحبتها في اليوم الثاني قبل أن يقاومها أو يعترضها أحد.

وسكتت المدافع ليلة الاثنين، بعدما أطلقت عدّة قذائف وظلّ إطلاق الرصاص من الدبّابات وبنادق رجال العصابة تلك الليلة حتّى صباح الاثنين.

وفي صباح الاثنين حلّقت في الفضاء طيّارتان، وبدأتا بإطلاق النار من رشّاشاتهما، ثمّ تبعهما إطلاق قذائف المدافع من قلعة المزّة من عيار ١٥، ومن القلعة التي في قلب المدينة حيث نُصبت مدافع كانت تقذف القنابل من عيار ٧ ونصف، فكانت هذه القذائف تتساقط على بيوت المدينة وأحيائها الغنيّة الأثرية التاريخية، الآهِلة بالسكان الآمنين، والمتلاصقة الجدران. وكنت لا ترى إلاّ سقوفًا تخرّ وجدرانًا تهوي على أصحابها من النساء والأطفال، وقد أسرع أصحاب البيوت إلى سراديب في داخل دورهم، فآووا إليها وجعلوا يُطِلّون من نوافذها ويشاهدون خرق القنابل أعالي دورهم وتدميرها.

وعند ظهر اليوم المذكور، بدأت المدافع تقذف قنابل النفط الملتهبة Incendiaires Torches على البيوت، فتشتعل وتلتهمها النيران. وهكذا أصبح أكثر سكان البيوت محاطين بالنيران الملتهبة، ومن فوقهم القذائف المدمِّرة تُمطرهم صواعقها، وقد دام ذلك طيلة يوم الاثنين وليلة الثلاثاء حتّى منتصف النهار.

ـ فرار الجنرال ساراي

ولا شكّ في أنّ السلطة شعرت بحراجة الموقف وإمكان تغلُّب الثوّار على قواها، فقد ركب الجنرال ساراي سيّارته في الساعة العاشرة من صباح الاثنين، وخفّ تحفه عدّة سيّارات ملؤها الجنود والرشّاشات، تاركًا دمشق، متوجّهًا إلى بيروت، وكان رئيس الحكومة يريد الفرار معه ولكن الجنرال أبى عليه ذلك وأمره بالبقاء في دمشق، فأذعن للأمر بعد أن رجا من الجنرال أن يستصحب معه عائلته المؤلّفة من أخته وزوجته. وهكذا ترك الجنرال ساحة القتال في أشدّ الأوقات حرجًا، وسلم بنفسه!

ـ تحت الضرب

كان إطلاق المدافع في اليومَين المذكورَين مستمرًّا لا انقطاع فيه إلاّ فاصلة ثلاث دقائق، كانت تُطلِق في خلالها قنبلتان، الأولى من قلعة المزّة، والثانية من قلعة المدينة، إحداهما مدمِّرة والأخرى محرِقة. وتناقَل الناس أنّ رجال العصابة كانوا على أثر سريان الحريق قد أتوا بمضخّة وبدأوا بإطفاء النار الملتهبة، وأنّ المدافع صوَّبت قذائفها على مضخّات الحريق والمَحال التي بُدئ بإطفائها، منعًا لذلك!

وشعرت إحدى العائلات اللاجئة إلى السراديب بدنوّ الحريق منها، فانتفضت تحاول الخروج من نوافذ السراديب، فاعترضتها تلول الخرائب، فأخذت تتسلّل من نوافذ أخرى حتّى بلغت باب المنزل، فاعترضها لهيب النار، فتحوّلت إلى السلالم

فتسلّقتها حاملة رضّعها وذراريها تحت قذائف المدافع وتساقط رصاص المتراليوز المنصوب في أعالي بعض المراكز، مستضيئة في ليلها الحالك بأنوار النار الملتهبة، غير حاسبة لِما سيحلّ بها حسابًا، حتّى بلغت السطح فاعترضتها حواجز خشبية كانت تفصل بين دارها ودور جيرانها، فاقتلعتها وانتقلت إلى السطح الثاني فانضمّ إليها جيرانها، فاستمرّوا جميعًا يتنقّلون من سطح إلى آخر حتّى بلغوا مأمنًا أو شِبه مأمن فنزلوا، ولم يمكثوا هنالك غير ساعات من الليل بغية الاستراحة حتّى فاجأهم تساقط القنابل، فجعلوا يتحوّلون من مكان إلى آخر وقد أصبحوا مئات، وأصبح الصباح فأعانهم نوره على الوصول إلى حيّ الصالحيّة شمالي المدينة وهو المحلّ الذي لم تصبه النار ولم تصل إليه يد التدمير. ومَن يمكنه وصف حالة أكبر عائلات دمشق، ومعها أطفالها وشيوخها تسير من المساء حتّى الصباح على هذه الحالة محاطة بهذه الأخطار، معرّضة نفسها وحياتها لكلّ طارئ؟

وكان المقيمون في حيّ الصالحيّة يشرفون من أعالي دورهم على باقي المدينة، فلا يشاهدون إلاّ دخانًا يعلو ونيرانًا تلتهب، ولا يسمعون إلاّ أصوات المدافع تهتزّ البيوت من دويّها فترتعد الفرائض من وقعها. ويتخلّل الفواصل التي بين دويّ القنبلتَين، الأولى والثانية، سكون رهيب.

وقد روى أحد اللاجئين إلى السراديب، وهو من أكبر العائلات في دمشق، أنه عند اتّصال الحريق بسردابه وانهيار جدران داره، خرج وعائلته المؤلّفة من عشرين نفسًا من السرداب على الحالة الموصوفة في ما تقدّم، وكان عند نزوله إلى السرداب في بادئ الأمر قد أنزل معه ما لديه من المجوهرات والمال والأوراق، فأعطته امرأته أثناء خروجهم من السرداب بعض المجوهرات الثمينة الخفيفة الحمل، فلم يعبأ بها، بل طرح ما أعطته على الأرض، وكذا فعلت إحدى بناته فأعطته النقود التي لديه، فطرحها من يده صارخًا بهنّ: لا نريد سوى النجاة بأنفسنا واتركْنَ كلّ ما نملك! وخرج بعائلته الكثيرة العدد وليس في جيبه غير ثلاثة ريالات، مغتبطًا بسلامته وسلامة عائلته.

وقد دمّرت دار هذه العائلة، وهي قد أُسِّست منذ مئتَين وخمسين سنة، وتُعَدّ من أنفس القصور التاريخية، يقصدها جميع السيّاح الذين يؤمّون دمشق للتفرّج على ما فيها من الفُسَيْفساء والنقوش الأثرية والأحجار التاريخية والآثار النفيسة والمفروشات البديعة، وفيها مكتبة كبيرة بها من الكتب الخطّية ما لا يُقدّر بثمن. وقد احترق ودُمّر لهذا الرجل ولسائر أفراد عائلته دور تتجاوز ثلاث عشرة دارًا في أحياء مختلفة من المدينة، وأكثرها من الدور التاريخية الأثرية النفيسة، وعدّة مخازن. وتُقدّر خسارة هذه العائلة وحدها بما يزيد على ثلاث مئة ألف ليرة ذهبية.

هذه عائلة واحدة من عائلات كثيرة في دمشق أصيبت بمثل ما أصيبت به هذه، على نسبة ثرواتها.

ـ عتوّ الفرنسيين وإمعانهم في التدمير

وفي الساعة العاشرة من نهار الثلاثاء توجّه بعض الناس لمراجعة الجنرال غاملان، وطلبوا منه توقيف المدفعيّة عن إلقاء قذائفها إبقاء على ما بقي من المدينة ورحمةً بالنساء والأطفال، فأبلغهم أنه لا يمكنه أن يتوقّف عن ضرب المدينة إلاّ عند ظهر الثلاثاء حسب الخطّة المرسومة، وذلك بعد أن يذعن الدمشقيون لتلبية طلب السلطة في أن يدفعوا إليها مئة ألف ليرة ذهبية غرامة حربية، ويسلّموها ثلاثة آلاف بندقيّة مع كمّية من الخرطوش في أيام معدودة. وأنه إذا خرج طلق ناري من أيّ حيّ من أحياء المدينة، فلا يسعه إلاّ تدمير ذلك الحيّ كلّه. وإذا لم يذعنوا لهذا الأمر، فإنّه سيُطلق في الساعة الخامسة من اليوم المذكور قذائف مدافعه على ما بقي من المدينة. وتنوقل عنه أنه قال: سيذكر الناس أنه كان في عالم الوجود، مدينة تدعى دمشق...!

ولمّا لم يكن بالإمكان تلبية طلب الحكومة، لعدم وجود المال في البلاد بسبب فقرها الذي حلّ بها، والذي تفاقم أمره من يوم لآخر، ولعدم وجود عدد هذه

البنادق في المدينة نفسها، رجع الوفد لمقابلة بعض الناس من الذين أمكن الوصول إليهم بعد انقطاع المواصلات بين أكثر أحياء المدينة. فلمّا كان من المستحيل تنفيذ مطالب الحكومة، ولمّا كان البلاء سيقع على رؤوسهم في الساعة الخامسة من اليوم المذكور إذا لم يُلبّوا طلب الحكومة، وبعد الأخذ والردّ، اتّفقت السلطة وبعض رجال الوفد على أن تكون نهاية الأجل المضروب يوم السبت القادم. وإذا لم تُلبَّ مطالب السلطة، ففي استطاعتها أن تطلق القذائف على ما بقي من أحياء المدينة!

- تنفُّس الصُّعَداء

تنفَّس الناس الصُّعداء، وشعروا بأنهم سينامون تلك الليلة براحة بعد عناء دام ثلاثة أيام مع لياليها، لم تغمض فيها عين أحد منهم، وقسم كبير لم يذُق الزاد لعدم وجوده، وقد بيعت في بعض الأحياء أقتا الخبز بليرة عثمانية ذهبية. فبدأت جموع اللاجئين تفد من قلب المدينة إلى حيّ الصالحيّة، حيث تجمَّع في كلّ دار ما يزيد على الخمسين من النساء والشيوخ والولدان. ومن اللاجئين مَن هو خارج من تحت الردام، أو من تحت الحريق، ومن النساء مَن تحمل طفلها الرضيع، ومَن تحمل بعض الحاجات التي لا قيمة لها ولا شأن، وكانت تظنّ في حال ذعرها وذهولها أنها تحمل أثمن شيء لديها. وأخذ الشيوخ يهرولون متّكئين على عصيهم، والأطفال من ورائهم يجرّ بعضهم بعضًا، ولا يدرون إلى أين هم ذاهبون، يلجون البيوت وهم لا يعرفون أصحابها، لا يطلبون سوى رحمة الإنسان بالإنسان، وعطف المرء على أخيه...

مَن يمكنه وصف ما كان يعلو وجوه هؤلاء اللاجئين التعساء، وما كان يخالج أفئدتهم من شعور الشقاء والبؤس؟

مَن يتمكّن من تصوير حالة الصالحيّة في هذه الساعة وهي تموج بنساء وأطفال وشيوخ، من أُسَر كريمة تعدو عدو النعاج، تلتمس ملجأ من أنياب الوحوش الضواري، وتخلُّصًا من مخالب الذئاب الكاسرة...؟!

- بعد الضَرْب

وبعد توقيف إطلاق القنابل، أرسلت السلطة سيّارتَين مصفَّحتَين إلى أكبر شوارع دمشق، وهو شارع مدحت باشا، وكان لم يدمَّر بالقنابل، وقسم منه لم تصبه يد الحريق، فكانت هاتان السيّارتان تُطلِقان قذائفها على أبواب المخازن فتحطِّمها، ومن وراء السيّارتَين جنود تُلقي في أبواب المخازن المكسَّرة قطعًا من النفط الملتهب فتلتهم النار المخازن والحوانيت، وهكذا حتّى آخر الشارع المذكور. وظلّت السيّارتان سائرتَين حتّى أتتا على آخر هذا الطريق المؤدّي إلى باب المدينة الشرقي، وقد قتلت في أثناء سيرها أناسًا كثيرين في الحيَّين المسيحي والمسلم، ذهبوا ضحايا الوحشيّة.

وشاع في حيّ الصالحيّة في هذه الآونة أنّ الكابتن كاربييه قد أرسل بعض رجاله الأرمن المسلَّحين إلى بعض نقاط من حيّ الصالحيّة، وأمرهم بإطلاق الرصاص منها حتّى تضطرّ المدفعيّة أن تُطلِق قنابلها على هذا الحيّ الذي أصبح ملجأ للاّجئين، فانتشر الذعر فيه.

- الكابتن كاربييه

كانت السلطة الإفرنسية عندما احتلّت دمشق منذ خمس سنوات، قد وقَّعت على اتّفاقيّة مع زعماء جبل الدروز، من جملة نصوصها أن يكون الحاكم على الجبل أحد أبنائه، فتعيَّن إذ ذاك سليم باشا الأطرش حاكمًا عليه، ثمَّ عُيِّن الكابتن كاربييه مستشارًا لهذا الحاكم الوطني، ولكن لم يمضِ زمن طويل حتّى توفّي هذا الحاكم، وعلى أثر وفاته بدأ كاربييه يدسّ الدسائس في جبل الدروز والمفوَّضيّة، إلى أن عُيِّن حاكمًا على الجبل عوضًا عن الحاكم الوطني.

وبعد تربُّعه في سدّة الحِكم اتّخذ منتهى القسوة وأقصى الشدّة خطّة له في إدارة الجبل، وأرخى العنان لعسفه وجوره، فأهان كرامة الزُعماء وحاول إخضاع

النفوس، ولكنّه أثار القلوب فطفحت بالحقد. وكان لأقلّ هفوة تحدث في الجبل يأتي بزعمائه وكبرائه ويُنزِل بهم أشدّ العقاب، وقد أتى بقسم كبير من زعمائهم فأجبرهم على تكسير الحجارة لإصلاح الطرق العموميّة، ولم يترك واسطة لإهانتهم والحطّ من كرامتهم إلاّ اتّخذها، حتّى رُوِيَ أنَّ قطّة له فُقدت من داره، فجمع الزعماء وأنذرهم بأشدّ الجزاء إذا لم ترجع هذه القطّة إلى داره، وفرض عليهم غرامة جسيمة. وهكذا كان يخلق كلّ يوم وسيلة للنيل من كرامتهم، وكانت تنهال المراجعات تترى على المفوّضية في بيروت ومندوب المفوّضيّة في دمشق من زعماء الجبل، بطلب تبديل هذا الحاكم بغيره من الإفرنسيين أو توقيفه عن الجور والظلم، ولكنَّ مساعيهم كلّها ذهبت أدراج الرياح.

وفي أواخر شهر يونيو الماضي أخذ هذا الحاكم إجازة مؤقّتة وسافر من الجبل، فأرسلت السلطة الكولونيل رينو وكيلاً مدّة غيابه، فتوجّه وفد من الدروز لمقابلة الجنرال ساراي ملتمسًا تعيين هذا حاكمًا أصيلاً، فرفض الجنرال ذلك، ورجع الوفد خائبًا. ولمّا أوشكت إجازة الكابتن كاربييه أن تنتهي، تشبّث الوفد أيضًا لدى الجنرال ساراي بإبقاء رينو بدلاً من كاربييه، فما كان من الجنرال ساراي إلاّ أن رفض مقابلة هذا الوفد، وأمر باعتقال رؤسائه وبعض زعماء الدروز الذين كانوا في دمشق، وإرسالهم إلى قلعة تدمُر مكبَّلين بالحديد، فأثار هذا العمل الجائر غضب الدروز وطلبوا من الحكومة إخلاء سبيل المعتقلين، فسُيِّرت إليهم قوّة لا يزيد عددها على ستّماية جندي، فأُبيد معظمها وأُسِر من أفرادها عدد غير قليل، فطلبت السلطة العسكرية إلى زعيم الثورة أن يسلِّم الأسرى بمقابل إرجاع الوفد من منفاه، فاتّفقا، وهكذا رجع الوفد ولكن الثورة عمّت ولم يبقَ مجال لإيقافها أو للحيلولة دون استمرارها.

واتّفق في هذه الأثناء أن عاد الكابتن كاربييه من إجازته، فكان من رأيه أنَّ قضيّة الدروز لا شأن لها، وأنه يستطيع حلّها بخمسمائة مقاتل، وقد أرسلت معه هذه القوّة فأُبيد قسم كبير وارتدّ الباقي، فاستعدّت السلطة وأرسلت قوّة عسكرية بقيادة

الجنرال ميشو، وذاع حينئذٍ أنَّ الجنرال ساراي لمّا أرسل الجنرال ميشو أمره بأن يقضي على الدروز القضاء المبرم، وصرَّح بأنه سيرسل الأرمن اللاجئين لسورية لإسكانهم في الجبل بدلاً من الدروز، فبلغ رجال الجبل ما تنويه السلطة لهم، فاستشاطوا غيظًا واستماتوا في الدفاع عن وطنهم، وحملوا حملة عنيفة على قوّة الجنرال ميشو فأبادوها ونجا الجنرال بأعجوبة إذ تمكّن من ركوب سيّارة مصفَّحة حملته إلى حيث أمن.

وقد تركت هذه القوّة التي ذهب بها الحنرال ميشو كلّ ما لديها من الذخيرة والمؤنة والأسلحة.

ووقعت بعد ذلك معارك عظيمة في المزرعة، والمسيفرة، وعرى، ورساس، لم يكن حظّ الإفرنسيين فيها أكبر منه في المعركة الأولى، ولم يبقَ أمام القوى الدرزية سوى بضع مئات من الجنود على الخطّ الحديدي بين دمشق ودرعا، محاطين بالخنادق والأسلاك الشائكة.

- مكافأة كاربييه

وبعد ما ظهر من خطّة كاربييه وثبت أنه مثير فتنة الجبل والباعث على إزالة هيبة الحكومة، لم تشأ السلطة أن تحاكمه ولا أن تعزله، بل عيَّنته مستشارًا في لواء أُنطاكية (شمالي سورية)، فاستغرب الناس ذلك، ولكنّهم استراحوا من شرّ هذا الرجل مدّة لا تزيد على شهر ونصف شهر، ثمَّ روت الصحف أنَّ الكابتن كاربييه قَدِمَ بيروت، وما هي إلاّ أيام قليلة حتّى شوهد مارًّا في شوارع دمشق، فخاف مَن عرفه أو عرف شيئًا من سيرته مغبّة الأمر، وخصوصًا بعد أن شاع خبر تعيينه في دمشق، وذلك قبل نكبتها ببضعة أيام.

ولم يُرَ هذا الرجل بعد ذلك في دمشق إلاّ بعد إطلاق نيران المدافع عليها، فقد شوهد عند سكون الحالة واقفًا أمام دار السلطة العسكرية في حيّ الصالحيّة، ساخطًا

على الشعب المتدفِّق نحو هذا الحيّ، مهدِّدًا منذرًا بقبيح القول كأنه لم يكتفِ بما نزل بالمدينة وأهلها من ضروب الشقاء.

وقد عُلِمَ أنَّ وظيفته كانت قائد الموقع العسكري، وكان بنفسه يوزِّع البنادق على رجاله من الأرمن، وشاع أنه كان يرسلهم لإطلاق الرصاص في بعض الأحياء كي تسلِّط المدفعيّة قنابلها عليها وتدمِّرها، طبقًا لِما أنذر به الجنرال غاملان من أنه يُطلق قذائف مدافعه على كلّ حيّ يخرج منه طلق ناري.

ـ جريمة لا تُغتفَر!

سعي الفرنسويين لتفريق الكلمة

يظهر أنَّ السلطة أرادت أن تستثمر عملها الفظيع وجناياتها على دمشق، وأرادت أن تبقى لها آثارًا سيِّئة أخرى في أفئدة هذا الشعب الهادئ المطمئنّ، فقد انتهزت فرصة استعار النيران في أحياء المدينة وتساقط القذائف على منازلها بحجّة وجود العصابات، وسحبت القوّة العسكرية التي كانت معسكرة في الحيّ المسيحي المنفرد عن باقي الأحياء الإسلامية، متوهِّمة أنَّ بعض المسلمين ربَّما يتصدّون للاعتداء على إخوانهم المسيحيين أو بالعكس، فيبدأ النهب والسلب وتبتدئ المذابح بين الطائفتَين، فيتسنّى عندئذٍ للسلطة أن تنسب أعمال الثوّار إلى بواعث دينية، وأن تبرهن على دعواها أنه لا يمكن للمسلم أن يعيش مع المسيحي إلاّ إذا كان هذا الأخير محتميًا بدولة أجنبية مسيحية تقيه شرّ المسلمين، وأنَّ السوريين غير أهل للاستقلال.

ففي هذه الساعة العصيبة تركت السلطة هذا الحيّ خاليًا من كلّ قوّة بغية الوصول إلى غايتها. ولكن خاب فألها، فإنَّ بعض الأهالي وقسمًا من رجال العصابات لمّا رأوا انسحاب القوّة من الحيّ المسيحي، توجَّهوا إلى هذا الحيّ

وطفقوا يطمئنون المسيحيين ويؤمِّنونهم على نفوسهم وأموالهم، فأثبتوا للعالم أجمع أنَّ أهالي سورية، مسلميها ومسيحيّها، أخوان رائدهم الاتّحاد والتضامن أمام المكائد الأجنبية، وقد قال الكابتن كاربييه لمّا رأى هذا الاتّحاد، على مسمع بعض الناس: إنَّ هؤلاء النصارى لا ينفعون لشيء ولا يساعدوننا في شيء، فلينفعونا في موقفنا هذا على الأقلّ!

ـ كتاب حسن الخرّاط

كان ذلك عمل السلطة وبعض رجالها، أمّا رئيس العصابة حسن الخرّاط، فقد أرسل بعد انسحابه من دمشق كتابًا إلى الجنرال ساراي، نشرته بعض الصحف، جاء فيه بعد المقدِّمة:

«... أمّا سياسيًّا فإنّي كلّلت شرف العرب بما هو أهله، واستحسن فعلي العالم كلّه لحسن إدارة رجالي ومحافظتهم على إخواننا المسيحيين والأجانب خصوصًا، وعلى الضعفاء عمومًا. وأمّا أنت، فقد نحرت شرف فرنسا وصوّبت قنابلك إلى قلبها... أنت ممثِّل فرنسا وأنا حارس دمشق، أسرتُ جندك أسرًا شريفًا وأنت ضربت النساء والأطفال ضربًا دنيئًا».

«حافظتُ على الآثار القديمة وأنت هدمتها يا جنرال يا ممثِّل فرنسا»!

«كان بودّك أن تجعلها دينية إسلامية، وتفرِّق بيننا وبين إخواننا ولكن الله أبى. فضيَّعت رشدك وخرّبت الأحياء الإسلامية على رؤوس أهليها آملاً أنّي أقابلك بالمثل، وقد فاتك أننا عرب ونحافظ على الجار».

«أنت جنرال وقائد الفِرق والجيوش، وأنا حارس بسيط، جمعتُ عقلي ضيَّعتَ رشدك...إلخ».

فمن مقابلة كلمات كاربييه وعمل ساراي بكتاب هذا الحارس البسيط، يعلم أيّ الفريقَين يجب أن يكون له حقّ الانتداب على الثاني!

ـ صدى بلاغ المعتمَد البريطاني

وقد حدث بعد توقيف إطلاق القنابل أن مُنِع السفر منعًا باتًّا من دمشق إلى أية جهة، عدا عائلات الأرمن. وذلك خشية افتضاح أعمال السلطة، ولإجبار الأهلين على البقاء في دمشق ليزداد ألمهم من الأعمال الفظيعة، أو ليذهبوا طعمة للنار وهدفًا للقذائف والرصاص، فيُمحى بذلك أثر البلاد والسكان على السواء. وقد دام هذا المنع ثلاثة أيام وأُبيح السفر بعدها برخصة رسمية فقط.

ولمّا أزفّ يوم السبت، وهو اليوم الموعود لتدمير باقي المدينة إذا لم يُلبِّ الأهالي طلب السلطة، أذاع القنصل البريطاني مساء الجمعة في دمشق بيانًا يقول فيه: "نظرًا لعدم إمكان تسلُّم السلاح من الأهالي ودفع المال اللازم، ونظرًا لأنَّ السلطة ستضرب بقنابلها المدينة مرّة أخرى صباح غد السبت، فعلى الرعايا البريطانيين أن يأتوا إلى دار القنصليّة قبل صباح السبت مزوَّدين بإعاشة تكفيهم بضعة أيام، ومصحوبين بجوازاتهم وأوراقهم المثبتة الرسمية".

ولا تسَلْ عمّا حلّ بالأهالي عند ذيوع هذا النبأ وانتشاره بالصحف الدمشقية، وما اعتراهم من الرعب والخوف، ولا سبيل لهم إلى مغادرة المدينة.

ـ كيف جُمِعَ السلاح؟

ولمّا طلع يوم السبت، جاءت السلطة العسكرية بحيلة دبّرتها، وهي أنها أوعزت إلى الحكومة المحلّية بأن تتعهّد بدفع هذه الغرامة من صندوقها، وهذه تفرض الغرامة المذكورة على الأهالي وتحصِّلها منهم بالقوّة مع ضريبة الأملاك، وبُدئ تفتيش الدور باسم البحث عن السلاح، فكنت ترى أنواع الفظاعة تُرتكَب من الجند والضبّاط بالأطفال والشيوخ والنساء الآمنين في بيوتهم. ولمّا تبيّن أنَّ سلاح البلدة لا يفي بالمطلوب، أوعزت السلطة إلى رجال الجركس والأرمن بأن يأخذوا بنادق من القلعة ويبيعوها إلى الأهالي بقيمة عشر ليرات ذهبية ثمن كلّ بندقيّة.

فكان الأهالي يشترون البنادق فتأخذها اللِجان المخصَّصة لجمع السلاح فتودعها في القلعة، ثمَّ يأخذها الجركس والأرمن فيبيعونها مرّة ثانية إلى الأهالي، وهؤلاء يعيدونها إلى اللِجان ثمَّ إلى القلعة، وهكذا حتّى تعبت اللِجان من عملية التسلُّم والتسليم، فجعلت تكتفي بأخذ عشرة جنيهات بدلاً من كلّ بندقيّة، وبهذه الطريقة تمَّ تسلُّم المقدار المفروض على الأهالي من السلاح.

ـ فظائع وفجائع

وفي هذه الأثناء كان الجند يتحرّون المارّين في الطرق، فيسلبونهم دراهمهم بحجّة التفتيش على السلاح، حتّى إذا عمد فريق من الذين سُلِبوا إلى مراجعة أُولي الشأن بذلك، سيق إلى السجن، فلا يرى مندوحة من إسقاط دعواه، ليخرج، وهكذا كان المشتكون المسجونون يتمكّنون من فراق السجن بمسامحة الجند بما سُلِبَ منهم!

ومن أعمال الجند أنهم كانوا يقبضون على أحد المارّة في الطريق بدعوى أنه من المشتبَه بهم، ويأتون به إلى بستان الكركة في حيّ الصالحيّة، ويكلِّفونه أن يحفر حفرة بيده وينزل فيها، فمتى تمَّ ذلك أطلقوا عليه الرصاص وواروه بترابه... وقد قُتِلَ عشرات على هذا الأسلوب الفظيع!

ومن أعمال السلطة، أنَّ طلقًا ناريًّا خرج من أحد أحياء المدينة ـ وهو حيّ سوق ساروجة ـ فأسرع رجالها إلى الحيّ المذكور، ولمّا لم يعثروا على مَن أطلق النار طرقوا باب منزل في المحلّة المذكورة، لم يكن فيه سوى امرأتَين وأربعة أطفال، فاتّهموهم بأنَّ الرصاص خرج من دارهم، وأمروهم بالخروج من الدار، ثمَّ نسفوا الدار بالديناميت. ومَرَّ أسبوع على هذه الحادثة والعائلة مجهولة المصير.

ومن الحوادث التي جرت في دمشق، أنَّ جنودًا إفرنسيين تحت إمرة ضبّاط إفرنسيين، كانوا يأتون إلى المخازن في رائعة النهار، وعلى مرأى من المارّة، وفي أهمّ

شوارع دمشق، كالسنجقدار وسوق الحميديّة، وينهبون ما في هذه المخازن من الأشياء والتحف والأمتعة ويأخذونها، وإن اشتكى أحد من أصحابها فإنّهم يأخذونه ويوسعونه ضربًا فيضطرّ أن يتسامح بما أخذوه، مكتفيًا بما حدث، ويعود ناجيًا بنفسه، حتّى أصبح الكثيرون لا يراجعون مرجعًا رسميًّا يشتكون إليه في مثل هذه الشؤون.

ومن فظائع الجند التي ارتكبت يوم ١٨ أكتوبر، أنّ طبيبًا معروفًا في دمشق خرج بعائلة يبحث لها عن مأمن ينجيها من القنابل المتساقطة، وكان على يده طفل اسمه عدنان لا يتجاوز الخامسة من عمره، فلمّا بلغ شارع الدرويشيّة رأى دبّابة رابضة على مقربة منه وحولها بضعة جنود، فأخرج منديلاً أبيض وجعل يلوّح به إشارة للاستسلام، وحذرًا من أن يصاب الطفل أو العائلة بسوء، فلم يكن من جنود تلك الدبّابة إلاّ أن وجّهوا إليه نارها وألقوا عليه قنبلة انفجرت أمامه، فأصابت شظاياها الطفل في رجلَيه المدلاّتَين، وانهزم به الطبيب، وتفرّقت العائلة في كلّ ناحية.

أمّا جثث القتلى من النساء والأطفال والرجال التي وُجدت تحت الردم، فكثيرة، ولا يمكن تعيين مقدارها إلاّ بتوالي الأيام، وقد اتّفق الرواة الثقات على أنه أُخرج من حيّ واحد، هو حيّ الشاغور، في يوم واحد ثلاثمائة جثّة من قتلى النساء والشيوخ والأطفال.

ومن أعمال السلطة أنها بدأت في سورية بتوزيع السلاح على بعض المسيحيين في لبنان وتجنيدهم وسَوقهم إلى ملاقاة الثوّار، وهي بعملها هذا تقصد إثارة الفتنة بين المسيحيين والمسلمين حتّى تنقلب المسألة إلى مسألة طائفية فتستثمرها كيفما شاءت، وقد أضحت حالة لبنان تبعث على القلق والخوف من جرّاء ما تدسّه السلطة هنالك من الدسائس، وما تبُثّه من السموم بين أفراد الطوائف ومن جرّاء تسليح البعض منهم ضدّ الآخر.

- المستجير بعمرو!

قال الجنرال ساراي لأحد كبار دمشق، وقد قابله في بيروت بعد نكبة المدينة راجيًا منه الرحمة بالأطفال والنساء: إنّ كلّ أهالي المنطقة الداخلية عصاة، وإنّه سيداوم على ضرب دمشق ثمّ حمص، فحماه، فحلب، إلى أن يجعلها قاعًا صفصفًا، ثمّ يركب الباخرة ويسافر...!

- سَتر الجريمة

وقد ثبت أنّ السلطة في دمشق أخذت تجبر الأهلين على توقيع مضابط بواسطة أئمّة المحلاّت، يقولون فيها إنّ الحريق والتدمير إنّما هو من أعمال العصابات...! وبدأ سماسرة السلطة وأعوانها ينذرون الأهلين بأنّ مَن لا يوقّع على هذه المضابِط يُعَدّ مشتركًا مع رجال العصابات، فيُساق إلى السجن ويُعاقَب أشدّ العقاب...!

- خطورة الحالة

هذا جزء ممّا جرى بعد نكبة دمشق الفظيعة. وقد أصبحت المنطقة الداخلية كلّها بيد رجال العصابات، عدا نفس مدينة دمشق وقصبتَي حمص وحماه. وكلّ هذه المدن محاطة بالعصابات القوية الشديدة، والحكومة عاجزة عن صدّها. وسبب بقاء المدن في أيدي القوى الإفرنسية هو أنّ السلطة لا تريد أن يقال إنّها جلت عن هذه المدن حتّى لا يؤثّر ذلك في أوروبا، وإنّ رجال العصابات يمتنعون على ما يظهر من دخول المدن تحاشيًا للإضرار بها، وخوفًا على النساء والأطفال والأبرياء من فتك السلطة بهم وتدمير المدن فوق رؤوسهم، لأنّ السلطة عوضًا من أن تتقدّم لمحاربة الثوّار، تنتقم من الآمنين في بيوتهم وتحصر همّها في تدمير دورهم على رؤوسهم.

وقد سُمحَ مؤخّرًا للعائلات بالسفر من دمشق بإذن رسمي خصوصي، فبدأت

المهاجرة إلى بيروت وفلسطين بكثرة، حتّى بلغ عدد المهاجرين من دمشق إلى بيروت وحدها، لغاية ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني)، خمسة وعشرين ألف نسمة، ومن المُسَلَّم به أنَّ كلّ مَن يملك أجرة طريق له ولعائلته لا يسعه البقاء في دمشق، بل يرجِّح النزوح عنها فرارًا ممّا يحدث كلّ ساعة من الخوف والرعب والسلب والنهب والحبس والتعذيب.

وقد أذاع هافاس، في ١٠ تشرين الثاني، أنَّ السلطة الإفرنسية أنذرت أهالي دمشق بأنها قد تطلق قنابلها على المدينة إذا قصدتها جموع الثوّار.

- بيان رسمي

وزِدْ على هذا أنَّ هافاس أذاع بيانًا رسميًّا من وزارة الخارجية الإفرنسية في باريس، بناءً على تقرير وارد من الجنرال ساراي عن حوادث دمشق، جاء فيه أنَّ عصابتَين دخلتا، في ١٨ أكتوبر، حيّ الشاغور والميدان، وتغلَّبتا على رجال البوليس، فأقام الإفرنسيون سدًّا حول الحيّ الأوروبي (وليس في دمشق حيّ خاصّ بالأوربيين). وفي ١٩ أكتوبر، استأنَف الثوّار إطلاق النار وشرعوا في الإغارة على أحياء أخرى، ولمّا كانت القيادة الإفرنسية تبغي اجتناب الاشتباك مع الثوّار، أمرت بإطلاق المدافع إطلاقًا بطيئًا (...)، فسقطت قنابل على الأحياء الوطنية التي كان الثوّار محتشدين فيها. وفي ١٠ أكتوبر سلَّم العاصون أنفسهم (أصحيح هذا؟ وهل السلطة في دمشق تكذب على الجنرال، أم الجنرال يكذب على حكومته؟!)

ثمَّ يقول: إنَّه لم يجرح أحد من الأوربيين (مساكين الوطنيون الذين ماتوا تحت الردم، والمقتولون من النساء والأطفال والشيوخ، فإنَّهم على هذه الرواية ليسوا بشرًا، وإنَّما البشر هم الأوربيون فقط!). ثمَّ يقول: وانحصرت الخسارة المادّية في الأحياء الوطنية، ولم تُصَب المباني العربية ذات القيمة الفنيّة والتاريخية بضرر ما (عجب!... وهل يمكن مَن يزور دمشق أن يرى فيها أثرًا تاريخيًا أو فنيًّا

بعد هذا الحريق والتدمير؟ نعم، هنالك خرائب وأطلال. ومَن أراد أن يشاهد أنقاض نينوى فما عليه إلاّ أن يزور دمشق، فيرى في هذه ما يريد أن يراه في تلك!).

- سياسة الجنرال

ولم يكتفِ الجنرال ساراي بما عمله، حتّى جاءت برقيّات باريس على أثر وصوله إليها، وفيها تصريح فاه به يوم ١٦ نوفمبر(تشرن الثاني)، يقول فيه: "إنَّني كنت في سورية لأجل التنفيذ. ولم يكن لي عِلم ببعض المسائل السياسة... ولكنّي أؤكّد أنَّ السياسة الإسلامية الفرنسية يجب أن تكون متماثلة في المستعمرات والبلاد التي تحت الانتداب...".

❁ ❁ ❁

هذا شيء ممّا استطعنا تلخيصه من فظائع ارتكبها عمّال الفرنسيس في سورية بَاسم التمدين والتحضير... وهو قليل من كثير. ولو تسنّى لنا أن نزيد في استقصاء الأخبار واستنطاق الآثار، لطال بنا نفس القول ولتضاعَف عدد هذه الصفحات أضعافًا كثيرة. ولكن كيف يمكن الاستقصاء، وحراب الجند في الأعناق، ورصاص المدنيّة الأوربية يخترق الصدور؟

حسبنا أن نقول مع أحد مكاتبي الصحف الأجنبية أنَّ بعض الشوارع في دمشق أصبح، بعد مرور أسبوع على الفاجعة، لا يُستطاع اجتيازه لانتشار روائح الجثث المدفونة تحت أنقاض الحريق والهدم فيه.

وحسبنا أن نعيد كلمة للجنرال ساراي الأوربي ألقاها على مسمع من بعض إخوانه في باريس، يقول فيها: إنَّ مئة وخمسين قنبلة طاشت في دمشق... وما معنى طيش هذا العدد الوفير من القنابل المدمِّرات والمحرِقات؟ أهو طيش القنابل أم طيش القيادة العمياء المجرمة السفّاحة؟

هذه هي المدنيّة الأوربية، وهذا درس من دروسها تلقيه على الأمم الشرقية، ليتَّعظ مَن كان في جوفه قلب، وليعتبر مَن بقي في نفسه مجال للاعتبار...

يقول الجنرال ساراي في تقرير له، بعث به من سورية قبل براحه إيّاها: "إنَّ تهديم دمشق كان مناورة دلّت على مهارة المدفعيّة الإفرنسية". ونقول نحن: إنَّ تهديم دمشق كان حقيقة تجلّت بها المدنيّة الإفرنسية في شكلها المجرَّد من كلّ طلاء... وما المدنيّة الإفرنسية إلاّ صورة بارزة من صور المدنيّات الأوربية الأخرى!

يجب أن يحلّ لفظ "المدنيّة الأوربية" بعد اليوم محلّ "البربرية الوحشية" في قواميس لغاتنا. فليس في العالم وحشية بربرية، وإنَّما هو تعبير ملؤه الخطأ والافتراء، تفشّى بيننا بالنقل عن الأوربيين أنفسهم، وأخذناه نحن غير منعمين النظر فيه ولا متأمِّلين في حقيقته.

المدنيّة الأوربية هي قتل الآمن، وبقر بطون النساء بالحراب، وإطلاق الرصاص على الطفل الرضيع تحمله أمّه الباكية.

المدنيّة الأوربية لا تأنس بصراع الفيَلة والأُسود، كما كان يأنس أبناء القرون الأولى المتوحِّشة، وإنَّما تأنس ـ المدنيّة الأوربية ـ بعمل مناورات مدفعيّة في المدن الآهلة بالسكان، فتخرِّبها على رؤوس أهليها... تأنس بأن ترى قذائفها تقتل الأبرياء والضعفاء من الشيوخ والنساء... تأنس بأن تلقي النفط على المتاجر والنار مشتعلة فيها لتزيد في توقُّدها واستعارها... تأنس بأن ترقب مهارة جندها في تحطيم الآثار القديمة التي خلَّفتها القرون الخالية... تأنس بأن تأمر البريء غير المتَّهم بأن يحفر قبره بيده وينزل إليه ثمَّ يتلقّى رصاصة من أحد جنودها تجعل مقامه في القبر أبديًّا...

هذه مهارة المدنيّة الأوربية في مناوراتها، وهذا ما تلهو به وتأنس. فهل يلام الشرقيون بعد أن لمسوا الحقيقة بأيديهم إذا نفروا من الأوربيين نفرة النعاج الوادعة من الذئاب المفترسة؟

لقد سئموا توغُّل الفرنسويين في سورية انتدابًا، ومنعوا السوريين أن يراجعوا ضرر الإفرنسيين في شكاويهم وظلاماتهم، فجعلوا الخصم والحكم واحدًا، وفرضوا على صوت سورية بأن يخفت، فاشتعل بركانها، فدمَّروها...!

أهذا هو الانتداب الذي عرَّفته عصبة الأمم بأنه الطريقة التي توصل البلاد إلى الحكم الاستقلالي الذي قيل إنَّ العصبة تألَّفت لتسير بالشعوب التي زعمتها مدبرة عنه إلى أن تبلغ بها مستواه؟

أهذا هو الانتداب، وما كانت سورية في يوم من الأيام لتنخدع أو تعترف به؟ أهذا هو الذي ترضى عنه الضمائر البشرية الحيّة في العالمَين الأوربي والأميركي وسواهما؟

كان يقال لنا إنَّ في الشعب الإفرنسي كما في غيره، أحرارًا استنارت بصائرهم بنور الحقّ، فهل بقي لهؤلاء أثر في الوجود؟ وإذا كان قد بقي أحد منهم، فهلاّ يغضب للفظائع الوحشية التي يرتكبها نفر منهم بأسم النهوض بالبشرية والسعي لترقية العناصر الشرقية...؟!

❁ ❁ ❁

معاذ الله أن يكون هذا انتدابًا، ومعاذ الله أن ترضى الضمائر الحيّة بما تقترفه المدنيّة الإفرنسية من التخريب والتدمير والإحراق والسلب والنهب في الديار السورية.

❁ ❁ ❁

فهرست المحتويات